

14 قصة من مدينتي

كامل حسن المقهور

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

[illegible]

14 قِصَّة مِنْ مَدِينَتِي

14 قِصَّةً مِنْ مَدِينَتي

قصص قصيرة

كامل حسن المقهور

مَنشورات
المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

العدد 6 — يونيو 1978م

الطبعة الأولى 1965 م

الطبعة الثالثة

1391 و. ر / 1982 م

تصميم الغلاف للفنان

عبد المنعم ناجي



المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

عيسى يوسف العريني

الطريق

ألف خاطـر . . والطـريق يمتـد الى حيث تلتقـي السماء بالأرض . . وعجـلات السيارة « البـولمان » تلامس الطــريق المرصوف وتصدر صوتاً يشبه الأنين . . وهمهمات الركاب . . هذا الخليط من الـركاب . . اربعـون راكبــاً . . وكل راكب يوحي بخاطر . . حتى شخير النائمين يصعد الى سقف السيارة ويكوّن كرة رمادية . . ويوحي بخاطر . .

ـ الدخان كمل يا خليفة . .

ـ توا نوصلوا « اجدابية » ونشروا . .

ويمتد الطريق . . وكلما اعتقد السائق انه وصل الى حيث تلتقي السماء بالأرض هرب السراب وامتد الطريق . . وألف خاطر . . كل شيء يوحي بخاطر . .

ـ الــدقيق غلى في طرابلس . . لازم نعبــي كرهبــة من بنغازي . .

ـ عنـــدك حق . . لكن « كرهبـــة » الخضرة . . زعمــتي وصلت . .

وتلامس العجلات سطح الأرض . . ويصدر منها صوت كالأنين . . وتمتد الصحراء على كل جانب . . وينتشر قطيع من الماعز . . أو الابل . . ويضغط السائق على زمارة العربـة . . فيخرج صوت مبحوح .

ـ شينك ليلة في طرابلس يا خي . .

ـ عذى يارا . . جيبت ما نشربو . . وما فيش صبايا .

وينحنـي الطـريق . . وتخف سرعــة العربـــة . . وتميل بالركاب . . فيرفع شيخ عينيه في الجالسين امامه . . وينظر الى سمـرتهما . . وملابسـهما اللماعـة . . وعيونهما التـي تنضــح شباباً . .

ويكشر ما بين حاجبيه . .

ـ لا حول . . ولا قوة إلا بالله . .

وكل راكب يوحـي بشيء . . حتـى النائمـين . . حتــى

الأطفال . . الطفل الجالس وراء السائق تماما وعيونه السوداء المعلقة به . . ثم وهو يجذبه من يده . . ويقول . .

ـ امتى نوصلوا . . يا عمي . .

وقبل ان يجيبه تمتد له يد من وراء « الفراشية » . . وتغمغم المرأة المسافرة معه . .

ـ بطـل يا فرخ . . قعمـز على الكرسي . . وانـت زي الشيطان . .

وترتسم على وجه السائق تعابير مختلفة . . ويضحـك في اعماقه . . ويحس ان ضحكته تشق قلبه وان هنـاك اشياء . . خواطـر يزخـر بها الطـريق . . حتـى هذه الأرض معبـدة بالخواطـر ، بالوجـوه . . في كل انحنـاءة تنحنـي معـه ألف عين . . وهناك حيث تلتقي السماء بالأرض . . تبرز على الخط المستدير وجوه مستديرة . . كثيرة . . وجه ابنه الصغير . .

ـ آمتى تولى . . بوي . .

وتهمد عينا الطفل الصغير . . وتمتد له يد سمراء تتحسس جبهته الملتهبة . .

ـ بطّل يا عليوه . . ما تتعبش روحك . . وانت مريض .

ولكن الصغير لا يفهم هذه الأشياء . . فيرفع يده الصفراء المرتعشة الضامرة في ضراعة ويبتسم وهو يقول . .

ـ عــلاش يا بوي ما تقعــدش معانــا . . أنــت كيف واصل . . آمس بس وصلت . .

ـ أنا مش معطل . . يا عليوه . . كلها يومين . .

ويجلس على حافة المندار . . ويحضــن ابنــه الصغـير . . ويحبك حوله الغطاء . . ثم يقبله على خده فيحس بحرارة . .

ـ شن تحس . . يا عليوه . . قول سلم ولدي . .

وتتقابل عيونهما . . وقد ارتسـم على وجـه الطفـل تعبـير بالاحراج . . والقلق . .

ـ ما نعرفش . . يا بوي ما نعرفش . . كلنى . . كلنى . . وخلاص . .

ومــع استــدارة الطــريق . . واتســاع الصحــراء على الجانبين . . ترتسم امامه الحجرة الضيقة بزواياها الأربــع . .

في كل زاوية شبح للقلق معلـق على الجـدار . . وفي وسطهـا امرأتـه . . خدوجـة . . شاحبـة . . طويلـة . . بضفائرها القصيرة المتدلية من وراء التسمال . . وحزام ردائهـا يقسمهـا قسمين . . وفي عينيها نظرة رمادية تعبة .

ـ نرفعوهللسبيتار . .

وتلمع النظرة الرمادية في جو الحجرة . . ويبتسم القلـق المعلق في الزوايا . .

ـ والله ما « يعفسه » . . .

ثم ينخفض صوتها الى اقصى حد . .

ـ نبي ولدي يموت بحداي . .

الموت . . خاطر . . كأي خاطـر . . وتركبـه رعشـة . . والطريق يمتد . . وصوت العجلات يخترق اذنيه كالأنـين . . والشخير يتكوّر كرات في اعلى سقف السيارة . . ولا يتبدد . . وانحناءة الطريق تميل بالركاب . . ومن آخر العربة . .

(كبرتي . . وهشكلتي . . وصرتي شينة . .)

وبعد أن رفع الشيخ عينيه وقال . .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . .

خرج صوت واضح شاب . .

ـ هات حاجة تفرح . .

وتختلط الخواطر . . وتمتزج الوجوه على حافة السماء . . ويبتلع الطريق العيون المزروعة على جانبيه . . ويعم الصمت . .

الصمت المعلق في جو الحجرة . . الكومودينو على اليمين فيه البخور . . والشكماجة فيها كتابات الفقهاء . . وحول صدر عليوه . . (حرز) ولكنه لا زال يحس بشيء . . إنه يستطيع ان يعرف انه يحس بشيء . . فهذه الصفرة . . وعيناه الهامدتان المتعبتان . . وخفقات قلبه التي تدق في السكون . . والكحة الموحشة وهي تشق قلبه . .

ـ يا مرا عيب . . عيب كلامك هذا . .

ويمتد صوتها . . ويكسب حدة المنشار . . ويلعلع صوتها . . ولسانها يتحرك في سرعة . .

ـ أنا عرفتك . . من يوم ما خدمت سواق . . ما فيش في قلبك رحمة .

وتقول أشياء كثيرة . . تحكي له عن نساء بنغازي . . وعن مصراتة . . وتقول أشياء كثيرة . .

ـ يا مرا عيب عليك . . مش وقته هالدوا الفارغة .

وعيون عليوة تلمع في الجو لمعاناً خافتاً . . كضوء شمعة تموت . . وحدقتاه تتسعان وهو ينقلهما بينهما . . والكحة اللعينة تشق قلبه الى نصفين . . والقلق المعلق في الزوايا يضحك حتى يعكر فترات الصمت . .

ـ السبيتار . . أنا ما نبيش ولدي يموت . .

ألف خاطر عن الموت . . فهو نفسه لا يريد الموت . . كالصحارى على الجانبين يمتد الموت . . كخاطر عريض . . كالطريق الطويل حيث تلتقي السماء بالأرض . . . وتمتزج جميع الوجوه . .

كالطابور الطويل ، أمام المستشفى . . أمام البناء الكبير . . وانسان يسأل عن الأسماء . . واشباح في ثياب

رمادية . . ورجال ونساء في ثياب بيضاء . . ورائحة معلقة في الجو . .

ـ شن فيه ؟ ؟

وكان الطابور يمتد وراءه . طابور طويل . .

ـ شن فيه يا سيد . . اتكلم ما فيش وقت . .

ولا بد ان يسافر في ذلك اليوم بعد الظهرَ . . ولا بد ان يدخل عليوه المستشفى . .

ـ ولدي مريض . . نبيه يخش السبيتار . .

وخيل اليه ان الانسان الجالس امامه يضحك . . وأنه يمثل له قلقاً بعيداً معلقاً في زوايا الحجرة .

ـ عندك اوردني من الطبيب . .

ـ لا . . ما عنديش . .

وضغط عليه الطابور . . الطابور الطـويل . . وغـرق في طوفان .

ـ ما فيش مكانات فاضية . .

والأنين . . واصطدام العجلات بالأرض . . والهمهمات معلقة كرات رمادية لها عيون في سقف السيارة . . واصوات كثيرة . .

ـ يا عمي . . يا عمي . .

ولم تكن المسافرة لتأخذ بالها منه . . فقد غلبها النوم . . وكان الصغير يمسكه من طرف جاكتته النازل من الكرسي . .

وعندما التفت اليه . . كانت في خياله صورة عليوة عندما يبل . . ولمعت عينا الصغير وقال :

ـ امتلى نوصلو . . يا عمي . .

وامتد الطريق . . والعيون تزرع نفسها على جانبيه . . وألف خاطر . . من كل راكب خاطر ومن كل عين نظرة جديدة . . وصوت التصاق العجلات بالأرض . . وأمل . . أمل بعيد معلق على خط التقاء السماء بالأرض . .

ـ مش فاضل هلبا . . « شن سماك » . .

ومضغ الصغير شيئاً في فمه وقال :

ـ محمود . . بوي يخدم في بنغازي . .

ومع الانحناءة . . كان محمود يقترب منه . . وكان السائق يقول له :

ـ قعمز بحداي . . يا ولدي . . تعالى وسنى . .

والطريق يمتد . . والشخير يزداد . . والنـوم يسيطـر على السيارة . . وانسانان جالسان . . في أول العربة . . يتابعـان الطريق . .

بُوخَة

يوم . . أو يومين . . بل ربما ساعة واحدة .

وأحسست أن الـرصيف يبـرد رويداً . . رويداً . . وان كل دقيقة تمر تحمل لي ألماً في ساقي . . ثم يتحـول الألـم الى ركبتي ثم يصعد تيار صاعـق بارد حتـى يصـل الى قلبـي . . واحس انني في حاجة الى كأس اخرى .

وكانت هناك روائح نتنة تمتد على طول الزقاق الضيق . . وأكوام من فضـلات الخضر . . وأوراق جرائـد . . وبقـايا البصاق وأرضية الزقاق الضيق السـوداء تتنفس رائحـة قديمـة قذرة لا زالت عالقة بهـا منـذ زمـن بعيد . وكان الهـواء ثقيلاً عليّ . . حتى أنفاسي كانت تجتر بقايا الكؤوس البيضاء التي صببتها في جوفي منذ مدة . . يوم أو يومين . . بل ربما ساعة واحدة ، فأنا لا ادري على وجه التحديد كم من الزمن بقيتـه ملقى على الرصيف .

أنا اذكر كلمات التشجيع تنصب في اذني وقد التف حولي جميع رواد الحانة .

صوت يقول :

ـ زيد يا راجل . .

ويعقبه آخر في خوار . .

ـ يا سلام . . هذي الطاسة الخمسطاش . .

ويأتي آخر من بعيد وفي يده الكأس . .

ـ خللي الطريق . . خلينى نشبح . .

وكانت الحانة ضيقة . . أضيق من الدكان الذي انام فيه . . اضيق من أي مكان في المدينة ، وكانت الموائد تمتد على جوار الحائط المطلي بالأحمر . . وعلى جوانبها كراس طويلة من الخشب القديم . . والوجوه السوداء والسمراء تتلاصق في ارتخاء . . وعلى طول المناضد تمتد أكواب من احجام مختلفة في اعماقها سوائل من انواع متباينة . . كل كأس يحمل الكثير . وفي الجو الممتلىء بالدخان . . المختنق همهمة . . تلمست عيناي الطريق الى السقف المتآكل فبدا بعيداً عليّ . . كنت

احس به يرتفع في بطء ثم يدور . . يدور في اصرار وتأرجح حتى غاب عن نظري . . وكلمات التشجيع تصلني خافتة متآكلة . . بطيئة وكأنها صادرة من أعماق حوت تائه في المحيط .

- زيد سلم خوي . .

- يا سلام لو كان يكمل الطاسة الأخرى . .

وعندما امتدت يدي لترفع الكأس الباقية على المائدة أمامي . . شعرت انني لا أرى شيئاً ، ثم احسست بجسدي يثقل ويرتخي ثم لم أحس بشيء حتى شممت رائحة الطريق ووجدت نفسي على الرصيف . . منذ كم ؟ أنا لا ادري . . فربما منذ يومين أو يوم أو ربما ساعة واحدة .

وكان الألم ينتقل من ساقي الى ركبتي . . ثم يصعد رويداً . . حتى يصل الى قلبي فأحس انني أفقد قدرتي على التنفس . . أحس بالسائل الأبيض الذي شربته يغلي في اعماقي ويمنعني عن الحركة .

ولكني تحركت . . وعلى الرغم من الدوار الذي اشعر به يلعب بقدمي ، والبرودة التي يحملها الهواء الى مفاصلي ،

والروائح التي تشق طريقها في عنف الى رئتي . . على الرغم من كل ذلك فقد كنت أتحسس طريقي في الزقاق الضيق . وكانت رجلاي تنتقلان فوق الأرض السوداء للزقاق ، وفوق حجارته القديمة ، وكنت احس بجسدي كله يتأرجح وأنا أشق طريقي الى خارج الزقاق . . حتى وصلت الى الأربع عرصات . . ووقفت وسط مفترق الطرق أنظر الى الاتجاهات الاربعة . . فعلى اليمين يمتد طريق الى المدينة القديمة . . وبعد ان أجتاز الشارع الضيق القذر والدكاكين المرصوصة بها الأنوال ودكاكين الحلوى التي يبيعها اليهود . . وبعد الكتاب وباب الجامع . . ثم دكاكين الكتبة العموميين . . بعد كل هذا سوف اصل الى سوق الخبز . . ثم انحرف الى السوق الكبير . . وهناك ربما أجد شيئاً . . ربما أجد . . سنيورا . . . أو (سنيورة) في حاجة الى حمال ، ربما انحنيت في أدب وابتسمت في ارتخاء وذلة . . ثم قلت :

ـ فاكينو . . سنيورة . .

وقد تنظر إليّ في شفقة . . وقد تنظر إليّ في غضب وتأفف . . ولكنها ربما قالت في لهجة قوية فيها رنة اشمئزاز :

ـ كوانتو كداش ألي .

وعندئذٍ سوف أَرضى بالقليل .

وعلى اليسار . . يسار العرصات الأربع يمتد نفس الشارع . . ولكنه يلتوي في اتساع اكثر وعلى جوانبه تقوم حوانيت كثيرة وفوق الحوانيت بيوت كثيرة . . وربما في بيت من هذه البيوت . . داخل هذه البيوت ، يهودية عجوز في حاجة الى خادم مؤقت يغسل السلالم . . ويمسح الأرض . . ويشتري لها لوازم الغذاء . . ثم تقول لي في آخر النهار بعد أَن تعطيني القليل . .

ـ شاوه يا عزي . . مش عاجبك . . ؟

وقد تنظر إِليّ في عطف . . وتحس انني استطيع الكثير فتقول :

ـ تعال بعد غدوة . . غدوة سبات . .

ولكني نظرت الى امام . . وعلى امتداد الشارع ابتدأْت انقل رجلي في اعياء . . وكنت أحس بها ترتطم بالأحجار المرصوفة في نظام عتيق . . وكنت احول عيني في اتجاه النوافذ المغلقة وهي تفتح لاستقبال الشمس التي لا تدخل مثل هذه

الأزقة وفي النوافذ كان يبرز رأس أو رأسان . . وفي العينين النوم . . وهو يستقبل ملء رئتيه هواء الصباح المنعش . . ومعه في اغلب الأحيان خفنة من روائح الطريق .

وكنت اصطدم بأصحاب الحوانيت وهم قادمون الى محلاتهم وفي ايديهم سلسلة طويلة في آخرها مفتاح أو مفتاحان يلتصقان في رتابة مملة ويصدران صوتاً كناقوس الكنائس يهزه قسيس سكران . . وفي آخر الزقاق برز انسان نظيف يلبس بذلة جديدة . . وقد صف شعره في اناقة ورسم على شفتيه ابتسامة سعيدة جميلة . . وعندما هم بقفل الباب سمعت صوتاً يناديه . .

- شالوم . . شالوم . .

ووقف الرجل لبرهة . . وكانت عيناه تضحكان في فرح ويداه ممتدتان . . والهواء المنعش من آخر الشارع حيث تبرز زرقة البحر يحرك جاكتته النظيفة . . ثم ارتمت في أحضانه صاحبة الصوت التي نادته . . وغابا في قبلة طويلة . . استمرت حتى لامس قفاي هواء البحر المنعش . .

وعندما اتجه (شالوم) الى اليمين نحو المدينة . . نحو

البنايات العالية التي تستقبل الشمس اتجهت أنا الى اليسار حيث الميناء . . وعلى طول الشاطىء كنت أشاهد العمال في ملابسهم البالية ينقلون أرجلهم في تعب ويحشون ايديهم في جيوبهم . . ويمسكون أطراف جاكتاتهم في قوة على صدورهم . . ويتحدثون . .

وقابلني (سعيد) وكان من بين الوجوه السمراء التي كانت تتراقص أمامي في الحانة وأنا أصب السائل الأبيض في جوفي فقال :

ـ صباح الخير . .

وكان يمسك رأسه بين يديه . . فنقلت عيني فيه في عتاب وقلت . .

ـ علاش ما روحتش بي ؟

فابتسم ابتسامة غامضة ثم قال وهو يقهقه . .

ـ والله ما نعرف اشكون روح بي أنا . . !!!

وواصلنا السير وراء جموع العمال . . وهواء البحر البارد يصب نفسه في جلودنا وهو يخترق ثيابنا الممزقة البالية ، وكانت

بوابة الميناء مقفولة ووراءها عسكريان . . كنّا جميعاً نتراص امامها . . وكلما زاد الوقت دقيقة كلما ازداد الزحام . . وكنا نكافح في سبيل الحصول على (الورقة) وكانت عيوننا جميعاً متجهة نحو الطريق المعبد الأسود الموصل الى المكاتب ننتظر خروج الموظف وفي يده الأوراق ، وكان الضغط يزداد على الصفوف الأولى . . والصفوف الأولى تضغط على الحاجز والعسكري الواقف وراء الباب يقول :

ـ لوراء يا ولاد الكلب . . لوراء يا بهائم . .

ومن بعيد كانت تلوح لنا السفن سوداء قابعة في السكون فوق مياه البحر تنتظر جموعنا ، أو على الأقل تنتظر جموع المحظوظين الذين سيحصلون على (الورقة) .

وعندما برز الموظف يسير في خوف نحو جموع العمال وراء البوابة المغلقة . . أَحسست بقوة جديدة تسري في مفاصلي . . وانفصلت عن العالم الخارجي وعشت بكل قواي في لحظة من العزم والاصرار في سبيل الحصول على (الورقة) . . وكنت أَحس بالجميع يتحركون في اصرار وكنّا ندفع بعضنا في قوة ، حتى استحلنا الى قوة بشرية تغلي وايدينا تلهث في الفضاء

والعسكري الواقف وراء البوابة يقول في بذاءة :

- لوراء يا بهائم . .

وعندما وصلنا الموظف ثبتنا فيه أعيننا . . ثم انتقلت نظراتنا الى حفنة الأوراق التي يحملها في يده . . وكنا نعلق عليها الكثير . . واختلط كل شيء في احساسي . . وتجاذبتني امواج العمال وهي تهتز مع اهتزاز الوريقات التي رماها الموظف في الهواء .

وكانت الأيدي تدور في الهواء كبحر هائج . . وكانت عيوننا جميعاً متعلقة بالوريقات وهي تتهادى نازلة من فوق . . وعندما امسكت باحداها . . أمسكت بها بكلتا يديّ ثم وضعتها في إصرار في جيبي الأيسر ووضعت فوقها يدي اليمنى . . وانفصلت عن الطوفان لأجلس على الرصيف استنشق بعض الهواء .

كانت الورقة تعني لي الكثير ، وفي سبيل هذا الكثير اخرجتها من جيبي ، ثم جعلت أُقلبها في شغف غير مصدق أنها لي .

وامتدّ يومي بين جموع العمال نحمل شحنات السفن . . وامتدت معنا الشمس تحمل نفسها من مكان الى آخر في إعياء حتى لفظتنا البوابة فرادى متعبين فوق أسمالنا بقع سوداء وصفراء . . وفوق أجسادنا برو زولون أزرق .

وكان الجميع يعدون النقود التي استلموها وعلى وجوههم ابتسامات شاحبة عشرون قرشاً . . عشرون قرشاً فقط . . وابتدأت أحسبها قرشاً قرشاً . . فقط عشرون . . إنها لن تعمل لي الكثير . . حذاء . . أوف . . إنني دائماً حاف في الشتاء والصيف . . جاكته ولكنها عشرون فقط . . والدكان ليس به جازة . . ويومان بدون غذاء كاف . . والشاي والسكر . . وأناس كثيرون اقرضوني نقوداً . . وآخر الشهر مقبل . . ونفس المبلغ لا يزيد . . في أي يوم نفس المبلغ .

ـ الحالة مش باهية . . عام شين . . ما فيش ابابير .

وكانت الجماعة التي تحيط بي ، تحكي حوادث البارحة في الحانة . . والعشرون قرشاً تأكلني في جيبي . . وليس هناك من مخرج . . و (سعيد) يبتسم في مرارة .

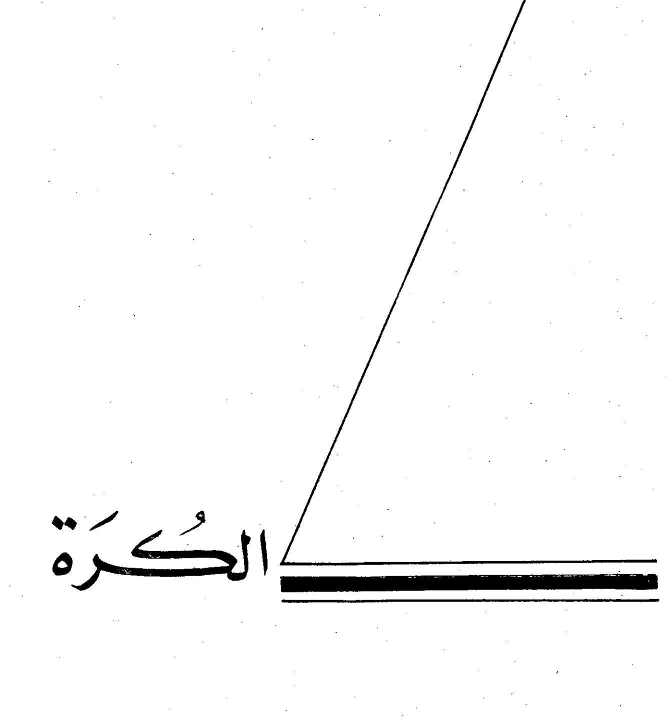
ـ ولدي مريض . . الفرمبيلي يبى حق اليبرة . .

وخطوات سريعة تأْخذ جميع الاتجاهات . . وشيخ عجوز يسير وقد تأَبط أرغفة خبز ،والعشرون قرشاً تأْكل ساقي وكأَنها تلتهب في جيبي .

حذاء . . جازة . . آخر الشهر . . وأَشياء كثيرة . . وعلى اليمين برزت الحانة الضيقة وكأَنها وحش كبير فاغر فاه لالتقاطي . . على اليمين فقط بعد خطوات توجد الحانة . . والحذاء . . والغذاء منذ يومين لم أَذق غذاء . .

والعشرون قرشاً كالابر في جيبي الأَيمن . . والحانة على اليمين تكبر أَمام عيني . . وفي آخرها كوب صغير أَبيض من البوخة .

الكُرَة



كان ذلك في أواخر ايام الربيع . . في نفس الوقت الذي يتجمع فيه الصغار في (الوسعاية) قريباً من الطريق المار بين الجبانتين . . قبل أن يمتد الشارع الكبير المرصوف الذي يصل الحي بالمدينة . . في نفس الوقت الذي يرجع فيه الكبار . . أُناس كبار . . ولكنهم ضعاف . . متعبون . . عيونهم هامدة . . أرجلهم ثقيلة . . وخطواتهم حائرة . . وفي ايديهم أشياء . . أرغفة خبز . . خضر من السوق . . وثيابهم ملطخة بآثار العمل .

في نفس الوقت بعد مواعيد الكتاب حيث يجلس الفقيه امام الجامع يشاهد الشيوخ يلعبون (الخربقة) وينتظر افول الشمس ليأمر بالاذان . وكان الصغار يخرجون من البيوت كالجرذان وفي أيديهم كسرات من الخبز ، يتجمعون في (الوسعاية) . . ويملؤونها ضجة . . ويقسمون انفسهم الى

فرقتين يلعبون الكرة . فرقتان تضمان جميع الصغار إلاّ عبد الله . . فقد كان يجلس على حائط الجبانة يتابع الكرة بعينيه اللامعتين . . ويتحرك جسده مع تحركات اللاعبين . . ويصفق عندما يحرز أحدهم هدفاً . . ويبتسم في ألم حينما يحسن أحدهم اللعب . . ولكنه كان دائماً يجلس في نفس المكان دون ان تتاح له فرصة اللعب .

وعندما يتقدم النهار . . ويبدأ الشيوخ في الخروج من الجامع . . ويهرب بعض الصغار الى البيوت . . ولا يبقى في (الوسعاية) إلاّ نفر قليل . . كان عبد الله ينزل من مكانه على الحائط . . ويبدأ في الدوران حول (الوسعاية) . . وأحياناً يتحسس الكرة برجله . . أو يأخذها بين يديه ثم يرميها الى أحد اللاعبين . . وأحياناً يلاحقها عندما تبعد عن (الوسعاية) الى آخر الطريق المار بين الجبانتين ويطاردها حتى الشارع الكبير ثم يرجع بها وهو يلهث . . ويعطيها وهو يبتسم لأحد اللاعبين .

وقد يحتاج أحد الفريقين الى لاعب . . وتمتد الأنظار الى عبد الله . . فيبتسم ابتسامته المملوءة ألماً . . ويظل يحرك

رجليه والجميع يتشاورون . .

ـ لا ما يلعبش معانا . .

ويرتفع صوت آخر رقيق يعرفه عبد الله جيداً . .

ـ ولد الفاسدة . . . أمي قالت لي ما تلعبش معاه .

ويطول التشاور أحياناً . . وتصل الى أذن عبد الله كلمات عميقة حتى تصل الى قلبه فتجرحه ، فلا بد انهم يكرهونه . . ليس هم فقط ، بل وأمهاتهم ايضاً ، النسوة اللاتي يأمرن صغارهن بعدم اللعب معه ، وكأنه أجرب . . أو أي شيء آخر ، وتصله الأصوات مرة أخرى . .

ـ أنا قلت ما يلعبش معانا . . كان يلعب أنا نبطل . .

ـ العبوا ناقصين .

ويصعد عبد الله الى مكانه القديم فوق حائط الجبانة . . وعلى شفتيه ابتسامة أليمة . . وحبات من الدموع يمنعه كبرياؤه من ذرفها امام الصغار . .

حتى يطغى الفريق الأكثر عدداً في اللعب . . ويحرز هدفاً

أو اثنين . . وعندئذٍ يتنازل صاحب الصوت الرقيق . . ابن الحاج . . وهو دائماً صاحب الكرة . .

خلو ولد الفاسدة . . يلعب معانا . . لكن اليوم بس ! !

ويحمى اللعب . . ويبدأ عبد الله ببذل أقصى ما يمكن من جهد . . ولكنه كان يحرص دائماً على أن يرمي الكرة ناحية صاحب الصوت الرقيق حتى يرضى عنه ، لكن الآخر كان دائماً يقول :

ـ باصي باهي . . يا ولد الفاسدة !

كلمات قبيحة . . كانت دائماً تلصق بأمه . . حتى النسوة كن دائماً يشرن اليه ويقلن في غير حياء هذه الكلمة . ولم يكن يصدق هذا الكلام ، فهو يحب أمه ، ويراها جميلة . . صغيرة . . على وجهها اصباغ لا تحلم بها نساء الحي . . وتعيش بعيداً عن جوهن الموبوء المملوء مشاحنات ، وعن التراب ، والجامع المتهدم ، والبيوت المنخفضة اللاصقة بالأرض . وكان يحبها جداً على الرغم من أنها لا تسكن

معه .. ولا مع جدته حيث يعيش ، ولم يكن يتصور أبداً ان هذه الانسانة الرحيمة الجميلة يمكن ان تكون ما يدعونه في الحي ، انه يكرههم لذلك . . انه يكره حتى شارعهم . . حتى اطفالهم . . ولكنه لا يعلم على وجه الدقة لم يعيش معهم ولا يعيش مع أُمه .

لقد قال لها مرة عندما زارها . .

ـ أُمي . . نبي نعيش معاك . . أَنا عييت من العيشة بعيد .

فابتسمت له ابتسامة حزينة ، ووضعت يدها على رأسه ، ولعبت بشعره ، ثم قالت :

ـ مش توا . . يا عبد الله . . لما نكمل الخدمة نعيشوا مع بعض . . في حوش ملكنا في المدينة .

وكان دائماً يسألها . .

ـ شن تخدمي . . يام . .

فتبتسم ابتسامتها الحزينة وتلاعبه وهي تقول :

ـ خدمة تجيب فلوس . . ياسر من أيام الهم . . قولي وين تبي الحوش . . !

ويعيش معها أسعد لحظات حياته يحلم بالسكن الجديد . . ويلوّن لها الحجرات ويبتسم وهي تصف الأشياء الجديدة التي سيملكها . . والملابس . . واللعب . . والكرة التي لم يشاهدها أبداً صغار الحي . . وأشياء . . وأشياء . . حتى تقول له :

ـ خلاص يا عبد الله . . أنا ماشية للخدمة . .

فيرد في رغبة وعيناه تلمعان . .

ـ نمشي معاك . . انشاء الله تربحي . .

فتبتسم له ابتسامتها الحزينة . . وهي تقول . .

ـ لا مش اليوم . . مرة ثانية . .

حتى الأمس حيث كانت آخر زيارة ، وكان وجهها شاحباً . . معروقاً وليس عليه أصباغ ، وكان معها امرأة غليظة تمسك بها في قوة . وعندما ضمته الى صدرها أحس لأول مرة

بالدموع تبلل ثيابه ، وقد دفنت رأسها في صدره . . فابتسم لها . . ورفع رأسها الى فوق . .

ـ تبكّي ؟ . . علاش . . قولي لي . . علاش ! ؟

فمسحت دموعها . . وأخرجت له كرة كبيرة لم يرها الحي أبداً . . وقالت له وهي تودعه . .

ـ خلاص يا عبد اللـه . . كملـت الخدمـة . . بعـد ايام نسكنو مع بعض . .

وبينما هي تحضنه قالت المرأة اللابسة البياض . .

ـ حرام عليك . . الله لا توريه هم . . أوه . .

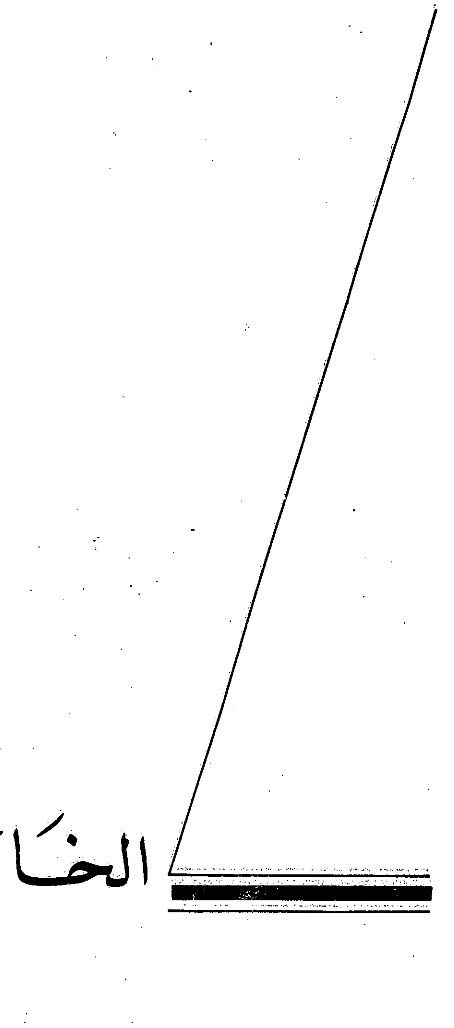
وفي ذلك اليوم من ايام الربيع في الوسعاية ، وقف الصغار جميعاً يشاهدون عبد الله يلعب وحيداً بكرته الكبيرة . ولم يكن عبد الله يجد لذة في اللعب وحيداً . . ولم يجد الأطفال لذة في اللعب بالكرة الصغيرة . . فاقتربوا منه يقلبون الكرة الملونة . . ويشاهدونه وهو يلعب حتى تجرأ احدهم . .

ـ نلعبو معاك يا عبد الله . .

فابتسم عبد الله ابتسامة مرحة ولمعت عيناه وقال :

- إلعبوا كلكم إلا ولد الفاسدة هذا ما يلعبش معانا . . أمي قالتلي ما تلعبش معاه . .

وحينما هجم عليه ابن الحاج . . وقف الجميع دونه يدافعون عن عبد الله .



الخَائِفُون

سكون . . دائماً هذا السكون .

أَيام الغارات ، وقد خلت المدينة من النـاس ، وعتمـت اضواؤ ها ، وماتت فيها كل معالم الحياة . . والسكون يحطم أعصاب الناس .

سكون . . دائماً هذا السكون .

حتى الجازات في البيوت كانت تخفـى بقماش ازرق ، أَو تطلى بلون قاتم حتى لا يراها راكبو الطائرات . . حتى أَضواء عيوننا كنا نخاف ان تظهر في الظلام او تلمع في الجو .

وصراخات الصغار . . وعواء الكلاب ، كانت في نظري مدعـاة للضيق ، يجـب اخمادهـا . . فيجـب أن يعـم المدينـة السكون . . دائماً نفس السكون .

أَنا أَذكر دائماً يوماً من أَيام الغارات .

كانت زوجتي تطبخ لنا مكرونة ، وكان الصغار يحومون حول الزاوية البحرية من البيت التي اتخذت منه امرأتي مطبخاً ، وكان يفصل الكانون عن الحائط حاجز من الصفيح لونه احمر واسود . . مخطط عليه بالايطالية ، وكنت اخلع ثيابي وألبس السوريه واستعد للأكل ، وكانت رائحة الطعام تصعد في الجو . . وصراخ الأطفال يختلط بعواء كلبتي السوداء الصغيرة . . باهتزازات الباب في حجرة الخزين . . بأصوات الناس في الشوارع ، وقد علا من وسطها اصوات الباعة . . وصياح الأولاد وهم يلعبون .

وكانت جارتنا تطل برأسها من فوق السطح وتنادي امرأتي وهي تقول لها في صوت منغم ذليل . .

ـ عندك ثوم يا حليمه ؟

ومدت امرأتي يدها فارتطمت بابني الصغير وهو يتحسس الطريق نحو (القدر) ليشم الطبيخ ، فضربته على فكه في غيظ وهي تصيح فيه . .

ـ سمسام ! . استنى شويه .

وكنت أُفكر في كثير من الأشياء اقولها لهذه المرأة ، فأنا أُحب صغاري . . بالأخص ابني الأخير ، كان دائماً قريباً الى قلبي . . وكان يهرع إليّ بعد العشاء ، ونحن نجلس تحت الضوء الخافت ننتظر أكواب الشاي المخلوط بالنباتات ، لآخذه في احضاني تحت عباءتي الثقيلة أيام الشتاء . كانت عيناه الصغيرتان اللامعتان تتبعان الكلمات على شفتي ، وكأنه يريد أن يسبق الحوادث ويعرف النهاية . . موت الجان وبقاء بنت السلطان .

واستمرت جارتي في حديثها مع زوجتي وهي ترمي لها فصوص الثوم الواحد بعد الآخر ، وفقاعات المكرونة تتلاعب في القدر فتلعب بالجوع في أجوافنا .

ونظر إليَ الصغير من شق الباب الموارب وهو يقول :

- بوي . . . بوي . .

- هاه . . شن فيه . .

- بوي أنا جعت مش حال هذا ؟

وكنت ابتسم له فهو دائماً يأكل معي . . دائماً أغرف له في

صحن صغير وأنفخ الطبق حتى يبرد الطعام ثم أترك له ملعقة القهوة ليغرف بها الطعام ويرميه في فمه الصغير ، فينزل الأدام من بين شفتيه واضطر الى مسحه ولم يكن يسمح لأحد بمسحه إلا أنا .

وكان ابني الكبير يطرق الباب حينما فتحه له أخوه . . فرمى «لوحه» الذي رجع به من الكتاب، وفي آخره الزخرفة اشارة الى انه قد ختم.وكان عليّ ان افكر له في ختمته وفي النقود للفقيه العجوز . . وحينما لاحظ الصغير الزخرفة على لوح اخيه ابتسم في خبث ثم مد يده نحوي وقال في لهجة كبيرة :

ـ مبروك اعطينا حلوى . . يا سي . .

وضحكت له وأنا ارمي بيدي عليه لأرفعه الى اعلى واقرب قلبه الصغير الى قلبي ، واقبل وجنته الصغيرة الحمراء . . وأدسّ يدي في جيبي واخرج ما اتيت به له من حلوى .

كنت اعمل في الصباح وفي المساء وأقبض أجرتين . . وهات الحال يلاقي .

في الصباح كنت أعمل في الميناء . . والثقل الشديد

والذخائر تفصل شبابي عن جسدي ، وعمالقة السنغال ينزلون بنا الشقاء ، وينزلون بأعصابنا الانهيار ، ودخان السفن ، وأصوات ارتطام أحذية الجنود بالأرصفة ، وصفارات رؤساء العمال ، وصراخ الضباط يلوّن الجو بطبقة من الضباب المشوب بعدم الاستقرار .

وكانت وجوه العمال شاحبة يأكلها الخوف . وكان معمّر اكبرنا سناً واكثرنا خبرة ، وعندما تغفل عين الايطالي عنه كان ينظر الينا جميعاً ، ثم يبتسم ابتسامة صفراء ميتة وكأنه يشيعنا وفوق اكتافنا القنابل الى قبورنا . . ثم يقول :

ـ عزرائيل على كتافك يا علي . . يمكن الكوره تطيح في حوشك .

وكنا نضحك ضحكات باهتة خافتة لا طعم لها .

وفي المساء كنت أعمل في المخابي . .

في آخر المنازل كان هناك خندق قديم يمتد تحت المقابر . . وكنا نحفر تحت القبور نبني مخابىء للناس . . القادرين على حفر المخابىء ، وعندما كنت اخرج بقايا جثث الناس البالية ،

كنت احس بشعور وكأنني أدفن الأحياء ولكنني كنت اقبض اجرتي ولا اشتكي،فللصغير كنت أعمل ليل نهار . . ولا بتسامته المشرقة ومداعباته الصغيرة كنت دائماً أفصل شبابي عن عمري لأحفظ شبابه لأيامه .

. . ولم تزل المكرونة تغلي فوق النار . . وأنا احس بالجوع في اعماقي . . والجوع في أعماق الصغير ، وزوجتي تكمل ثرثرتها مع جارتها التي تدلي رأسها من السطح تحكي قصة لياليها مع أم زوجها وأخواته ، وكانت امرأتي تهز رأسها في أسى مفتعل وتقول بصوت منغم حزين . .

ـ مسكينة . . ربي يكون في عونك على هالهم . .

وتشبث بي الصغير وقال لي وهو يضم يديه حول عنقي . .

ـ بوي . . أنا جيعان . .

فأخرجت كلمات من حلقي الجاف وقد قطبت جبيني في وجه الصغير ، لأظهر له انني غاضب من اجله .

ـ يالا يا مرا . . يزيك من الدواوي الفارغة . .

فقطعت الجارة حديثها المحزن وخفضت من صوتها وهي تجر رأسها الى الوراء وتكتم ضحكة مغرية . .

ـ نهار أحرف . . قوليلي راجلك قاعد . .

وانخفض صوتها وهي تغيب عن الأنظار . .

ـ والله ما عندك حق . .

فالتفت الى زوجتي وهي تسوي من (قصتها) النازلة على عينيها وتشد من حزامها حول وسطها . .

ـ ما تصبر بالك . . والله احرف من الطليان . .

ولكن الصغير نظر اليها في غير شفقة وهو يمط شفتيه وكأن كلامها لم يعجبه ، ثم انفلت نحوها في حركة غاضبة مستنصراً بي يريد أن يؤدبها . . وفي منتصف الطريق بينها وبيني تسمرت قدماه فقد انطلقت صفارة الإنذار .

واختلط كل شيء في عقلي المضطرب وأعصابي المتعبة . .

وجريت بأسرع سرعة الى الباب فارتطمت به . . ووقعت على الأرض ويدي ممدودة تحاول ان تشد الصغير نحوي ، فوقع

على كلفي ، وغاصت قبضتاه الصغيرتان في قفاي ، وانهمرت دموعه الساخنة تبلل لحمي العاري . . ومدت زوجتي يديها في جزع فارتطمت احداهما بالقدر فاسقطته عن (الكانون) وسابت المكرونة تخط لها مجرى وسط البيت ، وكان (الكانون) والعاً مملوءاً بالنار . . وأنا أتلمس بيدي الصغير وأحاول أن أضمه الى نفسي ، وأقوم لأهرب به الى الدار . . ومن خلال هذا كله كنت اصيح كالمجنون .

ـ طفي النار . . طفي النار . .

واختلط كل شيء في الشارع ، كانت جميع الجارات يصرخن بأصوات عالية جزعة كل منهن تنادي على صغيرها ، والصغار يبكون في خوف وقد تسمروا تحت الحيطان ، وعربات الباعة وقد ألهبها الخوف تجري في كل اتجاه . . وجنود الطليان على عربات نارية يجولون في الشوارع يجلدون الناس بسياطهم يأمرونهم بالاختباء .

ومن بعيد كان الأزيز يعلو رويداً . . رويداً . . كاقتراب ساعة الموت .

وكنت أمسك صغيري بيدي وأدور به في أركان البيت باحثاً عن

مخبأ . . وكان الصغير يمسك بي من عنقي وكأنه يخاف ان اهرب منه . . وابني الكبير يمسك بطرف ثوبي المتهدل يتبعني حيثما ذهبت ، وقد اصفرت وجنتاه وارتعشت يداه ، وكان يغمغم من خلال اسنانه المصطكة .

ـ بوي خذني معاك . . بوي انشاء الله تربح . .

وامرأتي بثوبها المنحسر عن صدرها . . وردائها وقد انفكت عقدته وتسربل طرفه تهرع بين (برميل) الماء والكانون تحاول ان تطفىء النار . .

وسمعت من فوقي صوتاً اجشّ فيه رنة خوف حاول أن يسيطر عليها .

ـ الريفودجو . . يا خليفة . . الريفودجو .

ولم اكن ادري ما يقول .

كانت كل حياتي معلقة في عنقي وقد تشبث بها الصغير . . وأنا اجر ابني الآخر وأدور حول نفسي أدخل داراً وأخرج منها لأدخل غيرها والصوت الأجش الخائف يلحقني يحاول ان يصل الى سمعي . .

ـ الريفودجو . . يا خليفة . . حرام عليك الصغار .

وكنت دائماً لا أَعي ما يقول . . وصوت الأزيز يعلو على سمعي فلا أَعي ما يقول . . ثم تسمرت في مكاني وكأَن جميع اَعضائي اصابها شلل .

كانت المدافع قد ابتدأَت تلقي ما في احشائها . . وكنت احس بها ترمي قنابلها التي كنت احملها على كتفي طول اليوم في الميناء . . في بيتي ، كنت أَدفن رأْسي في احضان ابني ، وأَتحسس بيدي رأْسه وكأَنني اتلقى عنه القنبلة حتى تنفجر في الجو وكأَنها بين أُذني .

وكنت أحس بالطائرة وهي تنزل . . بصوتها الغامض المثير . . وهي تصعد . . ثم بالقنبلة تخترق طبقات الجو لتنزل فوق رأْسي ، حتى تنفجر . فأَتحسس رأْس الصغير وامر بيدي على طرفي حتى تصل الى ابني المسمَّر تحت رجلي . . وأحس انني ولدت من جديد ، وبعد انفجار القنبلة يعلو الصراخ من صدري . . ومن ورائي . ومن امرأَتي وقد اسندت رأْسها الى الحائط مشتتة الشعر . . على وجهها علامات الموت . والصوت الأجش الغليظ يهتف بي وهو يبتعد قليلاً قليلاً :

ـ يا خليفة حرام عليك . . الريفودجو .

ومع انفجار القنابل في الجو وتتابع الطائرات وهي تهبط من السماء لتدمر الأرض تحت اقدامنا وعيت نفسي ووعيت كلمات جاري . . وعرفت ان طريقي الوحيد للنجاة ولحياة ابني الصغير وابني الآخر وامرأتي . . هو المخبأ . . واستردت باقي انفاسي وصحت في نفسي خائفاً :

ـ ياللا يا مرا . . خفي روحك . . الريفودجو .

ثم دفعتها امامي وتحسست طريقي الى الباب . . وعندما فتحت الباب لم يكن في الشارع إلا أُناس هاربون . . ونساء اشباه عاريات ، والصغار وهم يجرون في كل اتجاه وفي اعقابهم امهاتهم واباؤهم يقودونهم الى الطريق . . وجنود الطليان على الدراجات النارية يلهبون الناس بسياط السنتهم ليسرعوا في الفرار .

وتلمست امرأتي طريقها وهي تجر في يدها ابني الأكبر . . والباب مفتوح على سعته وبقايا المعركة التي ادرتها بحماقتي واضحة للجميع .

ووضعت الصغير على الأرض وهو يتشبث بي . . وابتدأت اشد باب البيت اللعين وأنا احاول ان اسيطر على أعصابي لأقفله بسهولة . . وكان دائماً هكذا هذا الباب لا يقفل إلا بهدوء أعصاب وعدة شدات .

وكنت أشد الباب في غضب والصغير متشبث بي والطائرات ترتفع وتنخفض واصوات القنابل تئز في أذني ورأس ابني ملتصق بي .

وحاولت قفل الباب . . ولكنه لم ينقفل . . وسمعت صوتاً من ورائي يشد ابني الصغير من يدي :

ـ خايف على رزق الدنيا . . خلي الفرخ .

والتفت جزعاً على مصير ابني . . فوجدت جاري (سي علي) وقد احتضن الصغير وعلى وجهه ابتسامة باهتة هزيلة ، وهو يربت على رأسه بيده . . فاستكان له الصغير وقال لي وهو يبعد عني . .

ـ أنا رافعه معاي . . سكر الباب باهى . .
ثم اختفى عبر الشارع . .

ولم تمض إلا دقائق حتى كنت أنا والباب وجميع ابواب البيت مكدسين في كومة واحدة في وسط البيت . . جثة لا أعي من الحياة شيئاً . . حتى شعرت بيد تهزني وتصب على رأسي وفي حلقي قطرات من الزهر . .؟ وعندما فتحت عيني ابتسمت في وجهي امرأتي وابني . . وثبتت المرأة الطيبة عينيها في عيني . . وفي شك قالت :

ـ وين محمود . . . ؟

فامسكت بها من يدها وقربتها مني في عنف وأنا اصيح :

ـ كان معاك . . كان معاك . . وين ولدي . .

وقمت مذعوراً أُفتش عنه في البيت حتى تذكرت . . تذكرت ان سي علي أَخذه معه واخبرت امرأتي فذرفت دمعة حزينة وهي تقول :

ـ الحمد لله . . الحمد لله . .

ثم جاءني صوتها وهي تضع يدها بخرقة مبللة بالماء تضمد بها جراح رأسي . .

ـ الكوره في حوش سليمان الحوات .. نوض ساعد الناس . .

فتوجهت الى هناك متهالكاً حتى وصلت الى البيت الخرب الممسوح مع الأرض وفي وسطه فجوة تشبه البئر . . وحوله جنود كثيرون ، والناس يجذبون الأنقاض وهم يخرجون الأطراف . . أطراف الناس . .

وعندما حاولت الاقتراب امسكني الناس . . ولم أكن ادري لذلك داعياً . . فأنا رجل منهم وأنا استطيع العون . .

حينما وضع الشيخ يده على كتفي أدركت انني مقبل على تجربة مخيفة . . حتى قال لي بصوته الأجش الغليظ في رنة غريبة عنه :

ـ البركة فيك . .

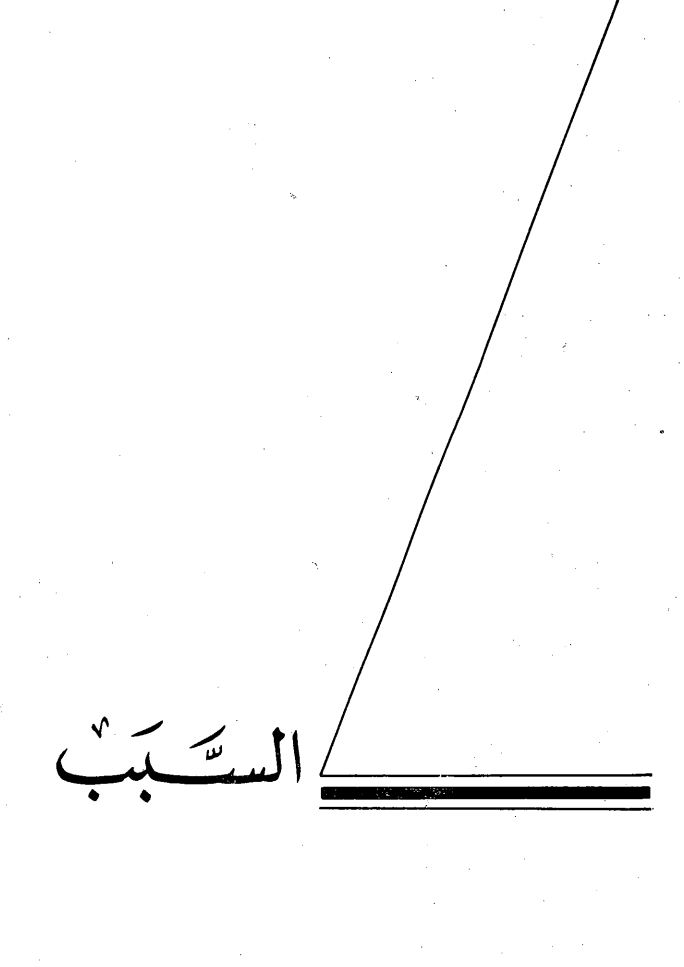
وكدت اهوي . . كدت ارمي بنفسي في قاع البئر او تحت الأنقاض أبحث عن حياتي الضائعة ، ولكنهم امسكوني . . جميعاً وأنا هائج كثور عنيد . . كنت أريد أن ألمس خد الصغير ولو مرة حتى وقد فارقته الحياة . . وجاءني صوت غليظ وكأنه قادم من اغوار سحيقة . .

ـ تحت الحيط البراني . .

وقذفت بنفسي الى هناك . . وكان سي علي يمسك الصغير ببقايا أطرافه المقطعة وقد تهشمت رأسه . . ولـكن ابنـي كان ينظر الي وقد ملأ عينيه التراب . وتلى ذلك سكون على حياتي وبيتي :

سكون . . دائماً هذا السكون .

حتى وأنا انقل رجلي الى المخابىء ، وامرأتي تجر رجليها في إعياء سريع ، وابني الأكبر يسبقنا بخطوات . . حتى هنا كنت أنقل رجلي في سكون خوف أن أعكر سلام حياته الأخرى . . حياة الصغير .



السَّبَبُ

كان آخر المطاف يوم أُخذوا البقرة . .

من يومها والحقد يأكل قلبه . . وعلى ملامحه العريقة . . وفوق ثنايا خدوده . . ظهرت خطوط سوداء قاحلة . . لا يرويها إلا العرق . . عرق الحقد ! وعندما سال الدم الأحمر . . ونحرت البقرة . . وتأوهت « وصكت » . . وخرج لسانها من بين اسنانها . . وفوقها الجزار الضخم . . أحس (علي) ان حياته قد تعكرت . . وان السلام الذي يرفرف في قلبه قد اصطبغ بالدم .

كان الشهر من أوله أسود . . أسود كقلب يهودي حاقد جائع . . يوم ان صحا من نومه على صوت (البارازان) . . وتحركات عنيفة في السانية ، وأوامر ولهجات ترطن . . وأحذية ضخمة ثقيلة تفسد جداول البرسيم والفول . . والفجل . . وخيم تنصب أمام عينيه . . وسارية كبيرة عليها العلم الايطالي

المثلث الألوان . . وبغال شديدة مربوطة الى أشجار النخل . . وأعراف أشجار الزيتون يكسرها الجنود . . وطوابير منهم تقف في انتظام . . وأوامر . . وكل شيء في ذلك اليوم يقلبه الى لون السواد . . تماماً كقلب يهودي جائع حقود ! !

وكان يقف أمام بيته مشدوها يدعك عينيه من آثار النوم . . ويقول (للتنينتي) في خضوع دون ان يفهم شيئاً . .

ـ طيب يا سنيور . . لكن علاش سانيتي أنا ؟ !

وحاول أن يفهمه الكثير . . وحاول الآخر ان يسكته . . وحاولت امرأته (الزينة) ان تشده من يده عله يفيق . . ولكنه ظل يتكلم ودماغه يفور . .

ـ لكن ما عنديش غير هالسانية . . يا سنيور . . غير افهمني . . إنا نأكل منها . . نسكن فيها . . ما فيش مكان آخر ممكن نعيش فيه . . نو سنيور . . ما فيش غيرها .

وكان (التنينتي) يفتح فمه مرة وأخرى يحاول ان يجد فرصة للكلام . . ولكن (علي) كان لا يفهم شيئاً . . إلا ان حقله الصغير قد أصابه التلف . . كان لا يرى إلا الخيم

والبغال . . والجنود . . وجداول البرسيم والفول وقد تحولت الى . . خراب . .

ـ علاش يا سنيور . .

وكان يشد شعر رأسه والزبد الطفيف الأبيض يتناثـر من بين شفتيه وعيناه تملؤهما الدهشة وبقايا النوم . .

فلا بد ان يكون هناك سبب لاختياره هو بالذات . . لا بد من وجود سبب لهذه الكارثة التي تسقط على رأسه . . لا بد من سبب . . وفتح فمه آخر مرة في إعياء فلم يجد ما يقول غير . .

ـ علاش . . علاش . . علا . .

وقبل ان يكمل كلمتـه امتـدت يد (التنينتـي) الى أحـد صدغيه بصفعة قوية أعقبها سكون موحش جامـد يقف بينـه وبين ضاربه . .

من أول يوم سكن في سماء (السانية) غراب اسود موحش وظله الغريب يمتد من فوق العلم ويظلل خيم الجنود .

وتعود (علي) الكثير . . عرف الجنود فأرسل زوجته الى أهلها في (البر) ، تعود ان لا يسأل عن سبب . . فهم هناك في

اليسانية . . بأمر . . بأمر من ؟ لا أحد يدري . . ثم لماذا هم هناك ؟ بأمر . . بأمر من ؟ لا أحد ايضاً يدري . . المهم أنهم هناك وليس هناك داع لسبب . .

ولكن أشياء كانت تمتد من قلبه العريق الحي النـابض ! أشياء كالسم تسري الى جسده كله ولا تظهر إلا على وجهه ، وعلى ثنـايا خدوده ، خطوطـاً سوداء من العــرق . . عرق الحقد . .

حتى قتلوا البقرة . . فكانت نهاية المطاف .

وامتد الحقد في عنف من قلبه الى يديه . . كان يحس بالألم وهو (يحش) تحت ضوء القمـر آخـر جدولـة برسيم بقيت له ليقدمها لبغال الجنود ، ومن بعيد كانـت اصـوات الجنـود . . وارتطـام الأحـذية بالأرض ـ تكسر حبـات الـزرع . . (والبارازان) كصـوت الغـراب يمـلأ السماء . . وصراع حاد عميق يأكل قلبـه . . ويديه . . ووصلـه صوت أقـدام (التنينتـي) وهـو يتجـه اليه . . وهـمّ ان يقـول له أشياء جديدة . . ويقنعه . . ولكن الآخر قال :

ـ أراباتشو . . أراباتشو . . فييني كوا . .

وعندما وصله . . كان ظلهما يمتد بين سيقان البرسيم . .
أسود بلون الحقد . . وكانت (المحشة) تتيرك بين السيقان ظلها المدور المرتعش . . وابتسم (علي) . . وقال :
سي سنيور .

ولمعت في خاطره أشياء كثيرة . . و (التنينتي) يكشر عن أنيابه ويرطن بالايطالية .

ـ لكن علاش ناديتني . . شن فيه ؟ !

فضحك الآخر في خيلاء . . وعندما كشر (علي) ولمعت جبهته ببريق حبات العرق وهي تتفصد من جبينه . . امتدت يد الضابط في قوة ثم هوت على صدغه .

وفي ثانية لم يحسب لها (علي) أي حساب كان الضابط ملقى على الأرض وفي عنقه (المحشة) . . وعلى الأرض الطيبة مجرى صغير من الدم الأحمر . . وتأوه الضابط . . و (صك) وامتد لسانه ليخرج من بين أسنانه ثم . . خمد الى الأبد . .

وعندما كان (علي) يجذب « المحشة » عن عنقه ابتسم في انتصار . وخطوط العرق تمتد على جبهته الملتهبة . . وهو يقول :

ـ كل حاجـة ليهـا سبـب . . لما الحكومـة تبعــث وراي العسكر . . لما نبخش الحبس . . وإلا حتـى نمـوت . . نكون عرفت علاش ؟

وكانت الأصوات تمتد على السانية . . و (علي) يجري في سكون الليل يقطع السواني بعيداً عن الجثة . . وظل الغراب الأسود يمتد من فوق العلم ليعم البلاد إلا قلوب الرجال حيث كان (علي) يبحث عن مخبأ .

السُّور

ـ خلاص . .

ـ كيف خلاص . . . ؟

وكان ستار الحجرة مرخياً . . خيشة رمادية طويلة تحجبنا عن الجيران ، وكنت ممدداً في وسط الحجرة فوق « مندار » قديم ، ووجهي للسقف ، ورائحة تسري من رجلي لتصل الى أنفي . . ثقيلة فيها الكثير من جو الصيف . . ومع ذلك فقد كانت نكهة الشاي تعبق الجو ، ونورية تجلس مستندة على الحائط وأمامها « الغالة » . . وعندما قلت مرة اخرى . .

ـ خلاص . . . ؟

انقطع سيل الشاي من البراد ووقفت يدها معلقة ورفعت في عينيها وقد ارتسم حاجبها في شكل قوس غامق وبرز في وجهها خطان عميقان بعثا الى قلبي الألم .

ـ كيف خلاص . . .

ثم مالت بيدها في ارتخاء وكسل ونزل خيط الشاي ، أحمر ، يكوّن فقاقيع رغاوية في الكوب . . وبعد ان أَلقيت عليها نظرة سريعة خجلى حاولت ان ابتسم في عينيها ، ولكنني حولت عيني مرة أُخرى الى السقف ، نفس السقف الذي بنيته مع أَبي من اخشاب النخيل . . كل شيء من (السانية) حتى طين البيت من أَرض (السانية) .وكان الصمت يغمر الحجرة وكأَنه إنسان آخر يعيش بيني وبين نورية ، حتى قالت :

ـ هاك الطاسة . .

فاختزنت رجلي تحتي ، ثم اعتدلت في جلستي ، وأَمسكت من يدها كوب الشاي الصغير وفوقه الرغوة الصفراء الرخوة ، وعندما التقت عيناها بعيني ، اجفلت ، وأَحست بأَلم ولكني قلت في سرعة وأَنا اقرب الكوب من شفتي في عجلة . .

ـ غذوة جايين يقوموا السانية . .

وأَطبق السكون ، وكنت امد شفتي في ارتعاش وأَنا أُقرب منها كوب الشاي ثم أَرشفه في عجل . .وكانت نورية صامتة ،

وقد ارتسم حاجباها كقوس غامق ، وبرز في وجهها خطّان ، والسكون يعيش بيننا جامداً حزيناً تقطعه فترات من كركرة براد الشاي وهو يغلي فوق النار .

- صار خلاص . .

ومددت لها كوب الشاي ، والتقت عيناي بعينيها وكان هناك خطان عميقان تحتهما ترويهما قطرات بيضاء شفافة . واستمرت يدي ممدودة وكوب الشاي يرتعش في الهواء ، ونورية لا تنظر إليّ وقد انخفض جفناها وغطيا عينيها ، وتنحنحت ، وقلت في جلبة :

- شدي . . شدي الطاسة . . يا مسبوهة . .

واستمرت كركرة البراد ، والسكون الجامد يمتد من تحت الخيشة الرمادية الطويلة ويقف بيني وبينها ، ومددت رجلي مرة اخرى . . وانطلقت منها رائحة الصيف العفنة ، ولامس قفاي المخدة وبللتها بقطرات من العرق اغرقت كل جسمي . . ثم علقت عيني بالسقف أُشاهد جريد النخيل واخشاب السنانية .

فـ . . غداً . . فقط غداً . . وكل شيء ينتهي . . ربما

أَقبض فيها مائتي جنيه . . ربما أَكثر . . فقد قبض مفتاح في قطعة ارضه الصغيرة ثمانين جنيهاً . . وعلي بوزاس . . والصادق . . وغداً دوري أَنا . . فقط يجب ان اقضي على هذا السكون .

وكانت الفكرة تتجسم أَمام عيني أَكثر . . وأَكثر . . والسكون يخنق جو الحجرة . . ويكسو الصندوق والسدة والحصر بطبقة رمادية . . ونكهة الشاي تختلط بجو الصيف . . وقدماي تتنفسان رائحة قذرة ، ونوريه تختفي من يميني ولا أَرى حاجبيها الثقيلين المقوسين . . ولا تلتقي عيناي بعينيها المسبلتين في صمت . . فغداً . . فقط غداً . . وكل شيء ينتهي . .

ـ ميتين جنيه . .

وابتدأْت ابتسم . . فهناك أَشياء كثيرة تلح . . والسكون يرسم أَمامي الفكرة . . لا بل أَفكاراً . . مائتي فكرة .

منذ أَكثر من عشرة سنين من يوم ان بنينا الحوش في هذه البقعة من السانية . . وأَنا لا أَحصل على فكرة واحدة .

أنا اذكر يوم ان قبض مفتاح ثمانين جنيهاً . . جديدة . . لماعة . . وشريط ابيض مطبوع يمسكها من الوسط ، وأمام بيته عربة يجرها حمار . . وابنه وأخوه يلمان جميع حاجياته ويضعانها في العربة . . وهو جالس في وسط الحلقة ، يرشف الشاي على مهل ، ويقول وهو يمصمص ما بين شفتيه :

ـ خلاص . . ربي تاب علي .

ثم يتمهل قليلاً ، ويضع الثمانين جنيهاً في حرص في جيبه الداخلي ، ثم يكمل حديثه :

ـ نشري حوش في المدينة . . ونبدي نخدم . . وإلا نفتح دكان . .

وكنا جميعاً ننظر اليه . . أنا . . والصادق . . وعلي بوراس . . وكركرة الشاي تسري في الجو ، ورمال خفيفة يحركها الهواء ، وأسراب الطائرات تهز السماء ، وعربات تشق شارعنا المترب لاهثة ، والشيخ يجلس في الوسط يحكي عن العزومة في المطار . . وكيف قابله المرشال . . وكيف سلم عليه . . وكيف ابتسم . . وأشياء غريبة .

ـ يا راجل . . عندهم فلوس زي التراب . .

وتلمع عينا الصادق . . ويتابعه علي بوراس بعينيه اللتين لا تهدان . . ثم يقول أحدهما . . .

ـ والله سانيتي كبيرة . . وفيها حتى الزيتون .

فيبتسم الشيخ في غرور . . . ويحكي أشياء غريبة . . ثم يقول . .

ـ زيتون شنو . . هادويبو الأرض . . التراب . .

وتشق السماء أفواج الطائرات . . ويتحرك الغبار .

ولقد اسفنا جميعاً على فراق مفتاح ولكنه قال وابنه يتسلق العربة ، ويهمز الحمار بعصاه ، ومفتاح يتبعه بعد ان سلم على الجميع . .

ـ من يوم ما شريت السانية وأنا شاقي . .

وكان ذلك منذ سنتين . . فقط عاش فيها سنتان . .

ويعقب رحيله السكون . . حتى يقطعه الشيخ يحكي عن العزومة . . والمرشال وأشياء غريبة .

ثم تبعه الصادق . . وعلي بوراس .

وغداً . . فقط غداً . . دوري أنا . وهبّت نسمة خفيفة هزت الستار . . الخيشة الرمادية التي تحجبنا عن الجيران ، ثم انفرجت ودخل مسعود وقال في لهجته المهذبة الصغيرة :

ـ السلام عليكم . .

ثم قفز في سرعة ،واختطف يدي يقبلها كما عودوه في الكتاب . . ثم ألقى على الارض قرون فلفل اقتطفها من السانية . . . وجلس على الحصير، ونظر الى أُمه ، ثم ابتسم وكأنه يحاول ان يطرد السكون . .

ـ شن الغدا . . .

ولكن نورية التفتت اليه وقالت في غضب :

ـ منين الفلفل ؟ . .

وغارت بسمة الصغير وهو يقول في خوف . .

ـ من السانية . .

وقبل ان تلقي عليه أي كلمة أُخرى . . قلت وانا احول

عيني عن السقف .

ـ قطع . . قطع حتى كل السانية . . غدوة مبيوعة . .

ـ كيف هكي ؟ . . حق . .

ثم مال بعينيه المدورتين نحوي في عجب واضطراب . . وارتسم فوق عينيه خطان مدوران ،وغارت إحدى شفتيه وراء اسنانه ، واصفر وجهه ، وأعقب كل ذلك سكون . . الانسان الغريب الذي يعيش بيني وبين نورية ومسعود .

ـ حتى أنت يا فرخ . . نوض اتغدى .

وقطع الصمت كركرة براد الشاي فوق النار ، والتفتت بكل حقدي الى نورية وقلت :

ـ هاتي الطاسة . . . خليني نمشي . .

والتقت عيوننا الستة ، وانسدل صمت قاتل يمزق الفراغ ، وتجسمت في عيني النظرة الدهشة والعيون المفتوحة . . وشممت مرة أخرى رائحة عفنة مشوبة بهواء

الصيف تمتد من رجلي وتدخل الى انفي ، وخيوط من السائل الشفاف تروي الخطوط في وجهي نورية ومسعود ، فقمت من على المندار في عجلة وانطلقت دون ان اتنحنح الى السانية أشم الهواء

على (البير) تحت التوتة الكبيرة العجوز وضعت رأسي على الأرض ، واستلقيت ووجهي الى السماء الزرقاء الكبيرة ومائتي مشكلة تتناثر أمام عيني . . كنت أحس بالهواء الشرقي يلهب الزيتون ساخناً جافاً فأخاف منه . . وفي الجهة الغربية اشجار النخيل . . ونخلة مسعود في الوسط صغيرة قصيرة تتسلق ظهر الأرض وتحتها حفرة الأرانب . . والى جوارها جداول الفلفل والطماطم . وكل هذه القطعة الصغيرة من الأرض تستلقي تحت السماء الزرقاء الكبيرة . . ومائتي مشكلة تطل على عيني . . والتوتة العجوز تلقي دائماً ظلها الوارف البارد عليّ . .

وغداً . . فقط غداً . . دوري أنا ! وكل شيء ينتهي غداً . .

تماماً كما حصل لمفتاح . . وعلي بوراس . . والصادق . .

وكان مفتاح أول من باع . . وتبعه الصادق . . وعلي بوراس .

وامتد سور ضخم من الاسمنت وأسلاك شائكة ، وثبتت على الحائط الضخم أنوار ضخمة ثابتة مشعة فقلبت ليلنا نهاراً . . ووقف وراءه جنود تسمع في الليل صيحاتهم . . وارتطام احذيتهم بالأرض . . وفي النهار نرى بنادقهم تروح وتجيء خلفه .

فقط أمام سانيتي انا توقف السور الكبير وكان لا بد ان يلتف . . او مائتي جنيه وربما أكثر .

ـ ميتين جنيه . . .

وكان الهواء الشرقي الساخن يلهب الزيتون فأخاف . . والطابية من الجهة البحرية هرتها الأيام ومرور العربات ، وفي حاجة الى تصليح . . فقد كان والدي دائماً يعتني بها.ايام زمان كان والدي يعرف الطابية البحرية بالذات ، على الطريق العام . . واليوم على طريق المطار . وغداً . . فقط غداً . . ربما تدخل فيه وسوف تمر بها عربات جديدة ويقف ، في مكان

النخيل طائرات . . وفي مكان الزيتون تقام مبان . . وسوف تردم حفرة الأرانب ، ويذبل الفلفل ، ويموت الطماطم ، ويهدم هذا البير . . حتى هذه التوتة العجوز بظلها الكبير البارد سوف تلقي مصيرها غداً . . فقط غدا . . فلا بد ان ابيع . . مائتا جنيه ، وربما أكثر ، والسور الضخم الواقف أمام سانيتي أنا . . لا بد ان يخترق الجدار ويضم الدار الغربية . . ثم يبلع الجميع ، والسماء الزرقاء الكبيرة ترسل صورها الصغيرة من بين أوراق التوتة العجوز ، ومائتي مشكلة ورأسي الى الارض .

- بوي . . بوي . .

وعندما رفعت عيني . . مدّ مسعود يده في جفاء وقال في عتاب :

- هاك الطاسة .

وجلس

وكنت اقلب عيني ، وأنا أمد شفتي في ارتعاش التهم الرغوة الرخوة واصل بلساني الى الشاي الاسود الساكن في القاع . . وخطوط عميقة سوداء تلون وجه مسعود الصغير وعيناه الى النخلة الصغيرة وحفرة الأرانب . وكان لا بد ان

يبتسم . . وابتسم وقال في رخاوة فيها حِدة المنشار . .

ـ وعلاش نبيعوا . . يا بوي . . ؟

وكان خيط أسود غامق يقوّس حاجبيه ، ويده الصغيرة تقبض حفنة من الأرض . . وركبته البارزة من سرواله المقطوع عليها بقايا طين ، وعيناه تلمعان في اتجاه النخلة القصيرة وحفرة الأرانب .

وعلى امتداد البصر في آخر طابيتي أنا ، تحت ظل آخر زيتونة ، رأس الشيخ تهتز لتحكي أشياء غريبة . . وكيف قابل المرشال . . وكيف ابتسم وصافحه وعيناه اللتان لا تهدآن . . وهو يقول في فحيح . .

ـ يا راجل . . عندهم فلوس زي التراب . .

وسؤال مسعود معلق في عيني . . والريح الساخن الشرقي يلهب الزيتون فأخاف عليه . . والطابية البحرية تضربها العربات وفي حاجة الى تصليح . . وتحت النخيل جداول الفلفل والطماطم في حاجة الى ماء .

وابتسمت في وجه مسعود وقلت وأنا أخفف عليه :

ـ نبو فلوس يا مسعود . نشريلك كسوة . . ونسكنو في المدينة . . و . . وكانت عيناه تلمعان ويده الصغيرة تلعب في الأرض وقلبه يدق في خفوت ، والخطوط السوداء فوق جبهته وتحت عينيه تعمق في قلبي . . وكان يقول :

ـ يلعن بو الفلوس . .

ثم يقبض بيديه على الأرض في عنف . . ويقول في حدة تقطع قلبي الى نصفين .

ـ خيره جدي ما باعهاش . . جدي كان زينا ما عنداش فلوس .

والريح الشرقي الساخن كاللهب يجلد الزيتون . . والطماطم والفلفل يطلبان الماء . . ورائحة من الأرض مستغيثة عطشى تطلب ان تدور (الكريوة) ويسيل الماء . . ومسعود بعيونه المثبتة في الأحواض الخضراء وظهره اليّ، يحصد بمحشته الصغيرة بقايا جدول برسيم يقدمها غذاء لأرانبه . . هناك في حفرة تحت نخلته الصغيرة القصيرة .

والى جوار الدار الغربية بعيداً عنها بأشبار . . تماماً عند انتهاء أرض علي بوراس يقف السور الضخم كالوحش يريد

التهام قطعة الأرض الصغيرة . . وعلى باب البيت نورية بقدها الطويل . . وتسماها الأحمر الذي اشتريته لهـا يوم السـوق من عام . . وردائها القطن من ثمن التمر . . وقفطانها المخطط . . ويديها المضمومتين حول صدرها والنظرة الساكنة الخائفة تمر بها على الجداول وتداعب بها النخيل وتخاف على الزيتون والريح الشرقي الساخن يلهب ظهورها .

ـ هيا . . يا مسبوهـة خفـي روحـك . . الطماطـم يبـى الماء . .

ومع أول دلو من الماء ، ومسعود ينثر البـرسيم في حفـرة الأرانب ، ويقف تحت ظل نخلته الصغيرة ونورية تحزم وسطها بردائها وفوق كتفهـا الفـأس ، والبقـرة تلف رأسهـا لتصعـد (المجر) من جديد ابتسمت في هناء واضاءت قلبي مائتاشمعة، وانا أرى السور الضخم من الاسمنت المسلح بأنواره الساطعة والجند من ورائه بأسلحتهم ينحني في انهزام أمام قطعة أرضي الصغيرة .

الميلاد

ـ أموري ميو . .

كان صوت الرايس الايطالي العجوز يشق جو (الكوشة) الراكد،ويختلط بصوت ارتطام العجين بالمناضد . وآلة العجين وهي تدور أمام عيني عيسى العجوز وهو يتمنطق بخرقة بالية ويلوك من خلال أسنانه اغنية سمجة ممجوجة . . وكان بابا (الكوشة) مقفولين ، والشارع المظلم يمتد من وراء الابواب ساكناً خالياً تنبعث في جوانبه اضواء جازات صائدي السمك وهم يصلحون الشباك .

كنت أعيش في قلق كبير .

منذ اكثر من اسبوع وانا اعيش في هذا القلق الكبير ، فعندما تركت البيت كانت زينوبة ممددة فوق (المندار) تتمخض الألم . . وام زينوبة جالسة على الحصير تصنع الشاي . . وأبواب حجرات الجيران مفتوحة وقد ارخيت الستائر فوقها ومن ورائها نسوة كثيرات . . ينتظرن خروجي للجلوس بجوار زينوبة .

وبعد ان وضعت جاكتتي فوق كتفي التفتت إليَّ زينوبة في ضعف وابتسمت ابتسامة واهنة وجلست قليلا بجوارها . . فقالت . .

ـ ان شاء الله ولد يا مصطفى . .

وابتسمت في خوف . .

ـ ان شاء الله بس تنوضي إنتي سالمة .

وكنت اكذب عليها تلك اللحظة ،فلقد كافحت كثيرا في سبيل مثل هذه الفرصة كنت أحلم دائما بمثل هذا الصغير . . كنت أحلم به ولدا صغيرا يلعب في التراب مع الصغار ، وأرجع له بلعب كثيرة ، وأضمه الى صدري عندما أعود . . وعندما أنام كنت أحلم بوضعه الى جواري وشخيره الصغير يدفعني الى النوم .

كانت فرصة العمر منذ تزوجت زينوبة . .

منذ أول ليلة كنت أحس به يتحرك في ظهري ،ويقلقني ، وكأنه يستعجلني .ولكنها كانت قاسية أول ليلة . . قاسية أقسى من العمل في المخبز تحت سياط النار وهي تشق طريقها من بيت

النار الى جو الكوشنة الراكد .

كانت زينوبة تخشاني وانا أدلف اليها احمر الوجه . . جاحظ العينين من الخوف . . والضجة تملأ البيت وقد وضعت « الزمزامات » غيظهن في الطبول ، وأصدقائي في الخارج يصيحون . . يتعجلون خروجي . . وعندما وقفت أمامها شعرت انني لا استطيع ان افعل شيئا . . ان هناك قوى خفية تقيد جميع حركاتي . . لساني لا يستطيع الكلام . . يداي لا تتحركان . وكنت أقف أمامها متسمرا وعلى شفتي ابتسامة بلهاء لا تعني الكثير

وقالت الزيانة لي وهي تضحك في خبث . .

- انحى لها الحوايج . .

ونقلت عيني الى زينوبة . . فارتعشت وانكمشت في ملابسها،ونزلت قطرات العرق فوق جبينها،ودارت عيناها في محجريهاتريدان الفرار . .

- لا . . . ابلاش توا . .

وكأن كابوساً قد دفع من فوق كتفي . . فتنهدت تنهيدة حارة . . ولمعت عيناها واستراحت . .

عندما خرجت الزيانة ،وجدت نفسي وجهاً لوجه مع زينوبة . . وحاولت ان أتذكر جميع الوصايا التي صبّها في أُذني أَصدقائي وهم يقطعون بي الشارع . . حاولت ان أَتذكر جميع ليالي . . مع النساء ، حاولت ان أَذكر شيئا عن زينوبة وعن أَحاديث والدتي عنها ولكني وقفت جامداً أَمامها أَنقل عيني في بله ولا أَقول شيئا .

كنت أحس ان الزمن كالمطاط يطول كلما زادت دقات الطبول وسط البيت . . كلما زاد الصياح . . !

كان العرق ينزف من مسارب لا مرئية من جسدي يغرقني في طوفان من الماء . . وزينوبة تنقل عينيها في أَرجاء الحجرة خائفة كقطة مذعورة . . والعرق يتصبب من جبينها وينزل على وجهها فيزيل الكثير من الاصباغ التي دهنت بها . . وبحثت عن منديل تمسح به العرق فأَدخلت يدي في جيب « الفرملة » . . وقلت وانا ارتعش . .

ـ هاكي محرمة . .

ومدت يدها وخفضت عينيها ثم قالت . .

ـ صيحيت . .

فاغتنمت الفرصة وقلت من وراء أسناني المرتعشة . .

ـ الحمد لله اللي تكلمتي . . كنت نحسابك بكوشة .

وضحكت . . فابتسمت ابتسامة خافتة بانت على أثرها أسنانها الناصعة البياض. كان كل شيء في الصغيرة يعجبني . . حتى تلك اللحظات على الأقل . . وكنت آسف على انني لم أعرفها منذ زمن . . وان هنالك أياما كثيرة من عمرنا انقضت وانا أبحث عنها وهي نفسها تبحث عني . .

ـ انت حلوة يا زينوبة .

فارتعشت يداها . . واحمر وجهها خجلا . . ومدت لي المنديل مرة اخرى وهي تقول في صوتٍ خافت . . مخنوق . .

ـ حتى انت يا مصطفى . .

كانت تجلس على كرسي وسط الحجرة . . وكانت ثياب العرس الثقيلة تحجب عني كل شيء . . . ولكني كنت أحس بها في اعماقي تتسرب في بطء تسرب حبات العرق وهي تخرج من مسارب لا مرئية الى جميع أجزاء جسمي . .وكان خلفها بنك صغير مزين بأشياء تافهة . . وعلى يمينه (شكماجة) قديمة

قمت انا بطلائها . . والى يسارها سرير عريض قديم ، وكنت أبحث عن مكان أجلس فيه .

- نقمعز على الفراش معليش . . . ؟

فابتسمت في خجل . .

- بروحك راهو . .

ثم ضحكت في خفوت . .

وكان الصغير في ظهري يستعجلني (والزمزامات) المتعبات يخفضن من الطرق على الطبول . . والصياح من الخارج يخفت ،وقد قلت الاصوات ثم دقت انسانة على باب الحجرة تستعجلني ولم أكن أريد الخروج ، كنت أحاول أن أصنع شيئا تلك الليلة . . اصنع اشياء تقرب هذه الصغيرة من قلبي وتقربني من قلبها . .

ولكني كنت مضطرا فاتجهت نحو الباب وعندما هممت بالخروج قالت لي في صوت خافت حنون . .

- ليلة غدوة تعالى بكرى . .

فالتفت اليها ووجدتها تغطي وجهها بيديها في براءة وخجل ،

فاقتربت منها حتى لاصقت الكرسي الذي تجلس عليه ونحيت يدها عن وجهها في رفق وطبعت على خدها قبلة صغيرة .

وامتدت بنا الأيام العجلى المرحة وزينوبة تستقبل من ثنايا ظهري صغاري الذين يريدون الحياة.ولكنهم كانوا بدون سبب يموتون حينما توشك ان تدفعهم الى الحياة وكانت هناك دائما خيبة أمل . .

دائما . . حينما أشتري أشياء كثيرة (للنافس) واشتري قطعا صغيرة للمولود الجديد ، وحينما أدعو والدتها ،وتزورني والدتي ،وحينما يفرح الجيران . . كانت هناك دائما خيبة أمل عندما يسقط طفلي كتلة حمراء من اللحم ليس فيها حياة .

وكانت والدتي تمسكني عقب كل مرة من يدي وتنزوي بي ناحية البيت في السقيفة مثلا وفي صوتها مرارة . .

ـ كيف تبي اتدير يا ولدي . هادى ما تشدش الصغير . .

وكنت اسكت وطعم المرارة يملأ فمي . . ولكنها تستطرد . .

ـ شن بتقعد من غير صغار . . ؟

وكنت أحيانا أتشنج من الغضب . .

ـ باهي . . . وشن بندير . .

فتمسك رداءها في اصرار . . وتحدجني بنظرة قاسية .

ـ طلق البلي . . طلق البلي وهات غيرها . .

ولكني كنت أحب الصغيرة . كانت زينوبة تعني لي الكثير . . كانت تمثل لي الأيام المرحة العجلى التي قضيناها نحلم بالصغار .كانت بالنسبة لي المرأة الوحيدة التي يمكن ان تكون أماً لصغاري .

ان مئات الفقهاء لم يستطيعوا عمل أي شيء،فقد كانت ام زينوبة تزورنا كل اسبوع وفي ثنايا ردائها أشياء كثيرة من جميع الفقهاء . . . أشياء تشرب بالعطر واخرى بالزهر . . وغيرها تخلط بالشعير والفحم . . واخرى للبخور وأشياء . . وأشياء . . ولكن زينوبة لا تستطيع ان تحمل الطفل في احشائها الا كتلة حمراء ثم تلقيه أيضاً كتلة حمراء بدون حياة . .

ومئات الأشياء تسلب استقراري . . الأطفال في الشوارع يلعبون في التراب . . الأطفال في الطريق الى المدارس . .

الأطفال يمسكون في أحيان ايدي آبائهم . . الأطفال . . الأطفال . . وزينوبة لا تستطيع ان تعمل لي شيئا وابتدأت تذبل . . تمسك عن الطعام ولا تقول الكثير . .

ـ خيرك يا مرا . . !

وكنت ألعنها وهي ساكتة . . وكنت ألعن شرودها وهي تبحث عن وصايا النساء ولكني دائما احسن اليها . . وامسك بها في قلبي انسانة عزيزة علي لا استطيع ان أعيش بدونها . . وعندما ابتدأت بطنها في الانتفاخ هذه المرة كنت أشعر بأن صغيري لا بد ان يعيش انه لا بد ان يرى الحياة هذه المرة . .

ـ لازم يعيش يا مصطفى . . لازم اني دعيت . . .

ـ ان شاء الله يا زينوبة . . ان شاء الله . . بس نوضي انت ما بيكش . .

وكانت والدتي تتابع الانتفاخ شهراً بعد شهر وتنتظره ، كومة لحم حمراء لا حياة فيها.وأم زينوبة تبتسم في وهن وخوف، وتخدمنا في البيت ،وتسهر على ابنتها في الليل .

ـ ان شاء الله وليد يامصطفى ،انا دعيت في الفجر والصبح

انا دعيت ، دعيتلك في الفجر والصبح والمغرب . . ديما ندعي . .

وكان جو الكوشة يوحي بالقلق، والدخان المنطلق من داخل الفرن يضيق بأنفاسي ويمنعني عن التنفس بهدوء وآلة العجين تدور أمام عيني في ضجة ،وصوت (الرايس) الايطالي يصلني في ارتجاج . .

ـ اموري ميو . .

ولم تستطع أعصابي ان تتحمل أكثر . . كنت أحس بأنني مقبل على تجربة قد تفقدني حياتي،فزينوبة هي الحياة بالنسبة إلي تماما كما يتأوه العجوز الايطالي .

ـ دولشي ميو ديزور . .

وأوقفت الآلة ، فسكتت الأصوات في الكوشة ، ورفع عيسى عينيه عن العجين واتجه بهما إليّ ،وقطع (الرايس) غناءه في عجب وألقى بنظرته العجوز على كاهلي ، وعندما اتجهت الى الحجرة التي على اليسار ألبس ملابسي وقف الجميع وسط الكوشة يتعجبون . . ولم اعد افكر في شيء يربطني بالعمل . . خرجت مهرولا . . والاصوات في الكوشة تخفت

رويدا رويدا حتى لم أعد أسمع شيئا ، وعندما كنت أجتاز الشوارع كان وجه زينوبة يقلقه الألم يلوح على طول الطريق . . ويداها الرقيقتان ككل مرة تبحثان في جو الحجرة عن معين . . وعيناها اللامعتان تنتقلان في السقف في قلق واضطراب . وكنت أحس بابني يتحرك أشبارا قليلة ، ويندفع ، وينكمش ، وزينوبة تتألم ، وتصيح ، وعيناها تبحثان عن معين . . تبحثان عني انا . وكنت أحس بشعور قوي يدفعني الى ان امسكها بين يدي . . واحس بالألم يسري في جسدي انا الآخر .

وكانت الشوارع تمتد . . ووجه زينوبة يختلط بوجه الصغير ويداي وجسدي الملطخ بالعجين تلوحان في الهواء في حركات لا شعورية،وأحلامي تتأرجح أمام عيني .

والوجهان الحبيبان يطوفان على البنايات والشوارع .

كانت هناك قوى عظيمة تدفعني الى الجري،والعرق يخط مساربه فوق خدي . .

كنت اريد ان الحق بالصغير . . بصغيري وهو يستقبل الحياة .

اليَمِين

ـ ما فيش فايدة يا شيخ . . ألله غالب .

وكان لساني يقطر المرارة . . لعابا اسود في فمي . .

ـ يا ولدي . . ان أبغض الحلال الى الله الطلاق . .

وتهتز لحيته البيضاء . . ويمسك بيده مسبحته السوداء الطويلة . . ويظل يمر بحبيباتها بين اصابعه . . وفترة الصمت تثقل علي .

ـ صدق الله العظيم . . لكن . .

ومن بين شفتيه تبرز ابتسامة لا لزوم لها . .

ـ هذا حديث . . مش قرآن . .

وفترة الصمت تثقل علي . .

ـ ما فيش غير هكي . . الله غالب . .

وتستمر « الله غالب » تدور على لساني . . ويستمر معها صمت الشيخ .

الصمت لا يوحي بشيء . . حتى ابتسامته الواسعة تلمع في صمت ، حتى حبات مسبحته تنزلق بين اصابعه في صمت . . حتى الجو والشارع والجامع وكابينة النور والخرابة وراءها وارتفاعة الزنقة والبيوت البيضاء والزرقاء . . حتى قلبي يدق في صمت .

ـ والصغار . ؟

وكأن قنبلة انفجرت في السكون . . حتى حبات الهواء تناثرت امامي تحمل الغبار ، وارتفعت قرقعة المسبحة ، وبرد جدار الكابينة الذي استندت اليه . . ومرت عربة الكناسة فحركت سكون تراب الشارع وارتفعت ذراته في الهواء . . وعندما قال الكناس « السلام عليكم » رد عليه الشيخ . .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . .

والصغار !! نفس الكلمة البسيطة التي اطلقها الشيخ من بين أسنانه في خفة تلعب امام عيني ، مبروكة وعلي ، والرضيع

المعلق في ثديها يحمل اسم ابي المرحوم .

- والصغار يا امحمد ؟

نفس السؤال . . نفس الكلمة البسيطة . . ولساني يقطر في فمي لعابي المر الاسود .

- الله غالب ياشيخ . مفيش غير هكي . . هادي مش عيشة .

تمام مش عيشة ، حتى جلستي بجوار الشيخ ليس لها فائدة . . حتى الحياة في هذا الشارع لا تساوي الكثير ، لا يمكن ان تساوي الكثير . . ابتسامتها اول ايامنا ، ايامنا القديمة من غير صغار . . اول ايام مبروكة وهي تداعبنا بالبكاء ، حتى أيام الشدة عندما تمرض الصغيرة وتبكي امها ، وادور في جميع الانحاء افتش عن دواء أو كتيبة أو فقيه يده طويلة أو أي انسان يمكن أن يعيد لنا ابتسامة مبروكة تضيء الحجرة في الليالي المظلمة . . كل شيء لا يمكن ان يساوي أيامنا القديمة .

- وعلاش هذا كله ؟

نفس السؤال القديم . . عندما تزوجت كان كل شيء

يبدو امامي لغزا ، حتى امرأتي كانت أكثر من لغز . . وجهها الطويل المشرق ، ابتسامتها العريضة الطويلة ، انتفاضاتنا في الليالي الاولى ، حديثنا الساذج ، كل شيء كان يبدو لغزا يحيرني حتى عندما شعرت بها تدب في شراييني ببطء ، ويمسك خيالي بضفائرها السوداء الطويلة ، واحمرار شفتيها وخديها وحركتها وهي تضع امامي سفرة الاكل وتنحني حتى تقترب مني بأنفاسها . . كل شيء كان يبدو لغزا اول الامر . . حتى أمي كانت تحيرني في تلك الايام .

ـ حصلة وخلاص . .

وتجذب « بنبوكها » في اشمئزاز وهي تصفق الباب وراءها وتمضي لبيت ابنتها .

كانت امي نوعا غريبا من الناس . . عندما كانت تجلس الى جواري وأنا أعزب وتسعل سعلاتها القوية وهي تقدم لي الغذاء ثم تلوي شفتيها في عجب وتقول :

ـ ماعادش نقدر عليك . . كان تبي رضاي خوذ مرا .

ولم أكن أدري فائدة هذه « المرا » فهناك أسباب كثيرة

تبعدها عن خاطري .

ـ منين الفلوس . . خليك عاقلة شويه .

ولكنها نوع غريب من الناس وظلت تلاحقني بأفكارها الشيطانية العجوز ، وتصب في اذني كل يوم سببا جديدا حتى تزوجت .

ومن ايام الخطبة وقبل « البيان » وهي تفرش لسانها الطويل وتضحك في بهجة وتقول :

ـ توا تشبح . . انا كلامي ديما صحيح . . هادي بنية زي الذهب .

وكانت فعلا أحسن من الذهب ، بأيامها الاولى الجميلة وابتسامتها العريضة وضفائرها السوداء الطويلة وحركتها الدائبة . ثم زادت قيمتها وبطنها تنتفخ وتسقط لي بهجة جديدة للحياة . . مبروكة ثم علي ثم الصغير الذي يحمل اسم المرحوم معلقا في ثديها الابيض الجميل .

ـ حصلة وخلاص . . الله لا تربح اللي كان السبب .

وابتدأت حجرتي الصغيرة تعرف الهمس الحاد وتلمع في

جوها الساكن كلمات كحد السكين المحمى في النار ، والجيران من وراء ستائرهـم يسترقـون السمـع ، وآذانهم معلقـة بالجدران ، منتصبة . . وبين انفراج الستائر الف عين تبحث في الصمت عن شيء ، شيء كاللغز يعيش في جو حجرتي . . والتعب يزداد على كاهلي ، ومرارة خفية تصب نفسها في ريقي وأنا اسمع كل هذا اللغط . . اللغط من جانب أمي والصمت الحزين يعلق نفسه فوق شفتي امراتي .

ـ حرام عليك يا للاي . . انشاء الله يلقوه ويتلقوه .

ويخيل الي ان في كلماتهـا دموعـا حزينـة ، وان ضفائرها سوداء من الحزن ، طويلة تحمل الالم ، وقدها الطويل يحنيه ألم لا مرئي يسيطر على كيانها .

ـ غير شن فيه .

وتتلقف امي ، هذه الانسانة الغريبة، كلماتي في ثورة تخفيها نظرة من عينـي تشـير الى آذان الجـيران والعيون المعلقـة وراء الستائر .

ـ مرتك يا سيدي طول النهار تضرب في اللقني . . نعرفها

شن تدير لك .

وتهمد عيناها وتهتز ضفائرها السوداء . . وعندما امسكها بين يدي والصغار نيام وشخير مبروكة تتلقفه اذناي ووالدتي في طريقها الى بيت ابنتها . . تقول لي في عطف .

ـ معليش . . خليها تقول .

واحاول ان أفهم اي شيء يكشف لي هذا اللغز . .

ـ شن صار ؟ شن قلتيلها . . غير شن درتيلها .

وتهمد عيناها في صمت ، وتتلقف عيناي الصمت وتنزل به عميقا الى قلبي ، ويكبر لغزها في صدري ولا افهم الكثير . . وصوت عميق حاد كنصل . . صوت كصوت امي .

ـ نعرفها شن تدير لك .

وكل ايامنا القديمة يمكن أن تموت . . كل الماضي ، حتى أيام مبروكة وعلي وصغيري باسم المرحوم وفمه الصغير يتلقف اللبن من ثديها الابيض . . كل هذا يمكن أن يموت . . وكلما هدأت وأحسست براحة ليلة أو ليلتين تقضيها والدتى فى بيت ابنتها اجد نفسي في حاجة الى الرجوع بها . . ونظرات الجيران

وعيونهم تكاد تلتهمني تدفعني الى الرجوع بها . . وكانت تلبس فراشيتها وتهدر بين أسنانها .

ـ خلاص شن تدير بي . . الله يأخذ اللي خداتك مني .

وتبتسم ابنتها،وتنظر الي نظرة اتهام ، ثم تنقل نظرتها الى امها في عطف وتقول . .

ـ خليها تقعد عندي خير . .

وعندما انظر اليهـا تسحـب اهانتهـا وتصمـت ، واعـود بالعجوز لأعيش في اللغز من جديد . .

ـ باهي وكيف بندير . . ما فيش غير هكي .

والشيخ متلذذ بالصمـت ، وعينـاه معلقتـان في الهـواء ، وابتسامته البلهاء تداعب سبحته بين يديه . .

ـ وعلاش ؟ خير امك معاها .

وابلـع ريقـي المر الاسـود وأنـا اخفــي السر في بطنــي وأخاف . . أخاف ان ينتشر في الحي .

ـ قالت تكتبلي . .

قلتها وأنا خائف وعينا الشيخ تلمعان . . وأنا أتخيله وهو يجلس بعد العشاء يحكي القصة للجميع ، وامرأته تخبط بيدها على صدرها وتشهق وتحكيها للجيران ، والعيون تلتهمني ، وآذان تستمع إليَّ ، وحاجز معلق في حلقي . . كلمة واحدة تنهي القصة واللغز وكل شيء .

ـ والله ما هي عيشة يا شيخ شن ندير . .

ولا بد ان الحكاية معلقة في خياله . . ولا بد انه سيزيد عليها الكثير . .

ـ صار هكي اه . . تكتبلك . . لا حول الله .

والصغار . . مبروكة ، وعلي ، والصغير الذي يحمل اسم المرحوم ينظر الي وقطرات اللبن لم تجف بعد على شفتيه الصغيرتين .

ـ مفيش غير هكي . . الله غالب .

والانسانة الغريبة تبتسم من وراء بنبوكها وهي تصفق الباب ربما خلف امرأتي هذه المرة وتقول في فرح :

ـ مااللافكه . . مشية من غير رجعة . .

وأعود لحكايتي القديمة . . واعود للصغـار لأعيش بدون صغار ، ويختفي من حياتي وجهها الطويل وعيناها الكحيلتان الجميلتان وابتسامتها العريضة والضفيرتان الطويلتـان ، وكل شيء يموت بكلمة معلقة في حلقي كحاجز اسود مظلم يمنعني عن التنفس .

ويرتفـع صوت حبـات المسبحـة والشيخ يخـرج من بـين اسنانه صوتـا كالفحيح . . صوتـا غريبـا كصـوت امـي وهـو يقول :

ـ الطـلاق مش باهـي يا ولـدي . . لكن تكتبلك . . الماهرة . .

وكان طعم المرارة يخف في ريقي وأنـا ابلـع الصغـار الى قلبي . . وارسم صورتها بين ضلوعي ثم وأنا اقول . .

ـ ان أبغض الحلال الى الله الطلاق . . مش هكي والا لا .

والشـارع الممتـد بارتفاعـة الزنقـة تفرشـه الابتسامـة ، وضحكات الصغار وضفائرها الطويلة . .

وأنـا اسمـع في أذنـي صفقـة البـاب . . وصـوت امـي الغريب . .

ـ حصلة وخلاص . . الله لا تسامح اللي كان السبب .

السَّلام عَلى مَنصُورَة

ـ مشغول على منصورة !

وابتسم الحارس الواقف على باب المستشفى وقال في لهجة رطبة وعيناه تتبعان الخارجين :

ـ نقزتها يا مبروك . .

ثم امسك بيده ورقة من ذات الخمسة قروش .

ـ حتى خدودك انتفخو . . والله نزاد فيك النفص ! .

وابتسمت وأنا أضع في جيبي الورقة الحمراء والطريق المار امام المستشفى يمتد أمام عيني . . والبناء الضخم ورائي موحشا ساكنا يعج بالاصدقاء ، عشرات منهم . . كلهم يقولـون . . دائما يقولون . .

ـ كيف حال منصورة . . يا مبروك !

وكان ذلك في الصيف . . في يوم الجمعـة . . عندمـا ابتدأت أبحث في الطريق عن وجوه الناس . . وكانت تذكرني بالجميع . . الصغـار بفتحـي . . بابتسامتـه الصغـيرة . . بالحبوب فوق جبهته . . وهو ينظر إلي . . ويشير في شقاوة . .

ـ بوي . . دمالتي فقست !

الكبار . . وفي ايديهم قفـة ملأى . . وأرجلهـم تلامس الطريق في عجلة . . الكبار يذكرونني بأيام العمل . . بالعودة آخر النهار عندما اقطع شارعنا المترب، . . وتقابلنـي جماعـات الشاي . . وعندما اقول . .

ـ السلام عليكم . .

كانـوا يعزمـون علي . . حتـى اتركهـم ورائـي فيقـول خبيث . .

ـ كيف حال منصورة يا مبروك . .

وكنت دائما مشغولا على منصورة . .

ولاح لي البحـر . . والطـريق المحاذي للشاطـىء يعـج

بالسيارات . . وفي جيبي الورقة الحمراء . . والناس يذكرونني بالوجوه التي اعرفها واحبها . . والنساء يخرجن من السينما فأذكر منصورة .

- زعما كيف حالك يا منصورة ! . .

وتمر بي جماعات صغيرة . . وفراريشهن يلعب بها النسيم العليل من داخل البحر . . وابتسامات تحوط بهن . . والرجال والشباب ينظرون في اشتهاء . . وفي اعماقي . . من قلبي هاتف صغير . .

- غير كيف حالك يا منصورة . . !

وكانت هناك نساء سافرات . . وعلى وجوههن غلالات رفيعة سوداء . . ولكن وجوههن ظاهرة . ولم تكن واحدة منهن بها وشام . . حتى لابسات الفراريش ليس لهن وشام . . ولكن منصورة بها وشام . . وشام اخضر كسنبلة القمح الصغيرة . . وعندما تضحك . . كان وشامها ينفرج . . ويتسع . . ويدخل الى قلبي . . فأعشق منصورة . . وكنت دائما احب منصورة . . لكن . .

- يا ترى حية والا ميتة يا منصورة . . !

وكنت احس بالجوع . . وفي جيبي خمسة قروش . . والوجوه السائرة في الشوارع تذكرني بالوجوه التي احبها . . واعرفها . . وابتسامة صغيرة تذكرني بفتحي . . ومنصورة ! . .

ـ زعما قاعدة تعشقيني يا منصورة . .

فبعد شهرين . . شهرين في المستشفى .

كنت قد بعدت لانني ابحث عن عمل . . في هذه المدينة الكبيرة . . وعندما ودعتني منصورة نظرت الى عيني . . وقبلتها على وشامها . . فقالت . .

ـ رد بالك من روحك يا مبروك . .

وانهمرت عيناها بالدموع . .

ومنذ شهرين لم ابعث بشيء . . الا جوابا واحدا بدون رد . ولم أحصل أبدا على عمل . . ولم استطع ان أعيش أو أعود . . فقد وجدت الناس يبحثون عن أعمال . . الناس أكثر من الاعمال . . ومرضت . . وبعثت لها بخطاب من المستشفى . .

ـ لكن ماردتيش يا منصورة . .

وانحدرت على خدي دمعة كبيرة وانا امر امام المقهى .

وفي ركن منزو كان شاب صغير يجلس على منضدة كبيرة يكتب . . وفي جيبي خمسة قروش . . ووشام منصورة يلعب امام عيني . .

ـ السلام عليكم . .

ونظر إليَّ ثم ابتسم . . . وخفض عينه وقال . .

ـ ربي . . ينوب !

ونظرت اليه . . ولاحظت انه لا يمكن ان يخيب . .

ـ بالله ياخوي فاضي شوية . .

ونظر إليَّ مرة اخرى . . وكأنه لاحظ الدمعة التي تنحدر على خدي . . فقال . .

ـ علاش . .

فقلت في ذلة . .

ـ غير تكتب لي جواب . .

. . قال لي وهو يفتح ورقة بيضاء امام يديه . .

ـ هيه . . قول . . لشكون الجواب . .

فتمهلت قليلا ثم قلت . .

ـ السلام على منصورة . .وقوللها كيف حالكم . .

وابتسم . . ولم يكتب شيئا . . ثم قال . .

ـ غير لشكون الجواب . .

ـ لمنصورة . . السلام على منصورة . . وعاودها ثاني . .
وقلها مشغول عليك . . وكان ينظر إليَّ في عجب .

ـ باهي . . باهي . . بعدين السلام . .

ثم سكت قليلا . .

ـ بس نكتبه لشكون .

وكنت احس انني المسها بيدي . . وأن شفتي فوق وشامها الاخضر . .

ـ قلهـا مشغـول عليك . . الليل والنهـار بطولـه وأنـا نبكي . .

وكان يخط اشياء وعلى وجهه ابتسامة . .

ـ عاودلهـا يرحـم والـديك . . قوللهـا كيف حالك يا منصورة . . مشغول عليك يا منصورة . . أنا ننشد وانت لا يا منصورة . . و . .

وابتدأت دمعتـان تأخـذان طريقهما الى عينـي . . كنـت احسن انه ينظر إليَّ من تحت . . وأن يديه ترتعشان . . وأنـه مثلي يعشق . . . ويحب . . وأن قلبه الصغير يميل إليَّ .

ـ باهي . . باهي . . وبعدين . .

ـ غير سلم عليها هلبه . . وقللها انا جاي .

وانحبس صوتي . . وأنا اعيد . .

ـ والله مشغول عليك يا منصورة . .

وقفل لي ظرفا من عنده ثم قال . .

ـ وين عنوانها . . منصورة . .

فقلت في عجلة . .

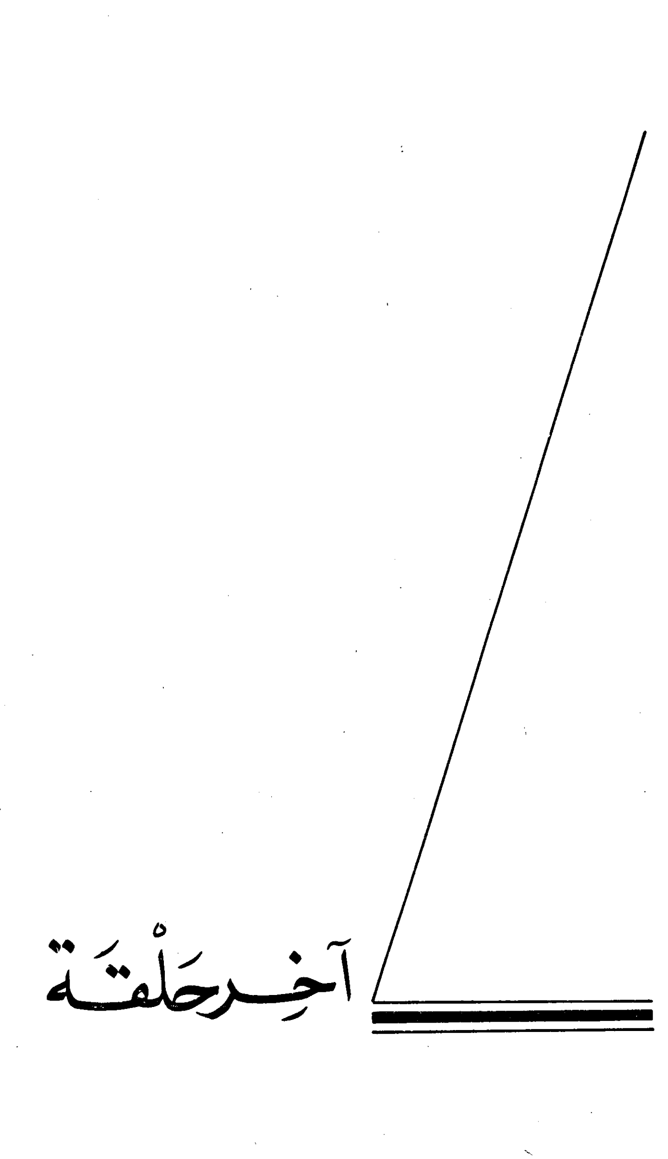
ـ لا ماتكتبش اسمها فوق . . عيب ! . .

ثم امليت عليه اسم عمي . . وعنوانه . .

وعندما سلمني الجواب . . وقال لي . .

ـ حط عليها بل بقرش .

انفسح امامي الطريق . . وامتد خيط امل على طول الشاطىء وهو ينظر اليَّ من تحت . . والجواب في يدي . . وفي خاطري كلام كثير لم اقله لها . . ولكن . . فقط يكفي انها ستعلم . . وانني بعثت السلام الى منصورة ! .



آخِـر حَلْقَـة

ـ الله يلعـن هاذاك اليوم . . يلعنـي انـا . . وأبـوي . . وجدودي . . »

ويداعب جمعـة حبـات الرمـل في حنـق . . ويعـدل من جلسته في الارض . . ويحس في أعماقه بدوار .

كان الشارع هادئاً في آخر النهـار بعـد صلاة العصر . . فالناس لهـا اشغـال . . وبعـد قليل ترجـع فلـول العمال . . ويخرج الاطفال من الكتاب . . ويصعد الغبار وهم يلعبـون الكرة . . وتبدأ البنات في التزاحم على الحنفية الكبيرة في اول الشارع ، ويعكر هذا الهدوء اصطدام الصفائح والعراك .

وبعد قليل يخرج الشيخ من الدكان بعد أن يكمل لعبـة الورق ويخرج الخرطوم ويمـده من نافـذة الجامـع ثم يبـدأ في ترطيب الارض بالماء ، وفـرش الحصائـر ، ويستعـد لجماعتـه ولجلسة الشاي . وفي الانحناءة بعد بابين مغلقين وبيت متهدم

تخرج منه رائحة طبيخ يقبع سالم صاحب الدكان ينتظر ساعة المغرب عندما يزدحم دكانـه بالبنـات والصـبيان والرجـال . . بوجهه الاسمر ، والقلم الكوبية المعلق على اذنه ودفتر ضخم كدفاتر البلدية فيه اسماء جميع سكان الشارع . . لكل واحـد صفحة وفي كل صفحة كتابة (زي تخربيش الدجاج) . . كل سكان الشارع يمرون بهذا الدكان في اخر النهار ساعة المغرب .

- غير أنا زي الكلب . . نستاهل . . نستاهل » .

حتى احمد بائع الفحـم والجـاز بصوتـه الغليظ وحيويتـه الدافقة . . حتى احمد كان يقول له دائما :

(تستاهل . . اشكون قال لك اتكلم . . تبي روحك خير من الناس) . . حتى امرأته مريومة كانت تقول بعينيها وهي تضع ثديها الاصفر الذابل في فم صغيرته . . كانت تقول نفس الكلمة وهي تنظر اليه . . الجميع منذ ذلك اليوم يقولون له :

- (تستاهل) . . بل لقد لعنـه ابـوه اول يوم ، ولعـن هو نفسه وامتدت لعنته الى آخر سلالته . . ولكن كل هذا لم يغير من حياته شيئا . . لم يرجعه كما كان . . لم يجعل له نصيب في دفتـر سالم . .ولا مكان في جمعيات الشـاي. . منـذ ذلك اليوم.

ـ (أنا عارف في شكون تصبحت) . .

كان اليوم أسود . . فعلا أسود . حتى قرطاس الدخان منعه عنه سالم ، فقد تضخم الحساب . . وسيارة العمال التي تنقله الى المطار مزدحمة في ذلك اليوم . . والعمال يتكلمون كثيرا عن اشياء كثيرة . وهو نفسه ، الوحيد بين أكثر من مائة عامل الذي لم يعجبه الحال ، الوحيد الذي سب الامريكان وخدمة الامريكان وفلوس الامريكان .

ـ ينقصوا الخدامة . . ؟ هذا شن فاضل . .

وتعلقت به العيون وهي ترتعش من البرد، وارتفعت اليه الرؤوس وهي تهتز مع اهتزازات السيارة ولكنه كان يعلم ما يقول . .

ـ علاش . . غير فهمونا علاش . . اللـه يلعن هالخدمـة واصحابها .

وهمزه الجالس الى جواره وقـال له واسنانـه تصطـك من البرد .

ـ دوا فارغة . . الخدمة زي ما هية .

ومن آخر العربة طلعت رأس مستطيلة فيها بقايا شعر مركبة على جسم نحيل .

ـ أنا سمعته بودني اول امس . . اليوم يبدأ تنقيص الخدامة .

وسرت همهمة وسط العربة وارتعشت وجوه الكثيرين . وابتدأوا يفكرون في انفسهم وكل منهم يخشى ان يكون الخبر صحيحا ، وانهم يريدون تنقيص العمال . . وارتعشت يدا جمعة ، وأحس بحرارة جارفة تسري في مفاصله على الرغم من برودة الجو ، وطرأت على رأسه افكار كثيرة . . عن نفسه هو ، عن السروال الذي كان سيشتريه من السوق آخر الاسبوع حينما يقبض « الحفظة » . . عن حسابه مع سالم . . عن مريومة ، عن ردائها القطن الذي انسل خيطا خيطا . . عن ابنته عن وجهها الاصفر وحبيبات حمراء تزرع نفسها فوق خديها وتحت عينيها . .عن ابيه،عن امه ، عن هذه السلسلة التي تربطه بالعمل ؛ ثم عن هذا العمل نفسه ، عن الجحيم ، نقل الرمال ، تعبيد الارض . . في الشمس . . في البرد . . في كل جو . . المهم نقل الرمال وتعبيد الارض .

ـ بدل ها الساعة بساعة . . فكونا من هالذوا الفارغة على الصبح .

وسرى في جو العربة سكون موحش وكل رأس يلتصق بصدر صاحبه وداخله يموج . . ولم يطق الجالس بجوار جمعة الصمت فقال :

ـ ذوا فارغة . . الخدمة قاعدة زي ما هية .

وانبرت له الرأس المستطيلة ببقايا شعيراتها . .

ـ عاد بتكذبني . . السرجنتي قالها قدامي . .

ويصدقه البعض ، ويمنعهم تفكيرهم عن الكلام . . ويقول واحد يملك الأمل .

ـ توا انت تعرف بالامريكاني .

ويحصل هرج في جو العربة والرأس المستطيلة تهتز ، وتهتز ، وتهدر ، وجمعة يرفع صوته :

ـ باهي . . باهي . . عرفناك . . عرفناك . .
وكل واحد منهم يفكر في عمله ، فربما كان اليوم يومه . .

اسود يوم في حياته . . وجمعة يفكر في السلسلـة التـي تربطـه بالعمل . . بأي عمل . .

ـ نخدم في البـرط . . ولـو كان هذا . . نخـدم حتـى في البرط . .

ويلكزه الجالس الى جانبه ، ويهمس في اذنه في خوف وفي صوته رنة القلق . .

ـ أنا هارب من البورط .

ثم يصمت ويبلع ريقه ويقول . .

ـ مفيش في البرط خدمة . . توقف من الصبح لليل وتروح وما تحصلش غير تقطيع حوايجك .

وكانت الرأس المستطيلة تحكي تفاصيل الحكاية . . وكيف كان السرجنتي يلـوك لسانـه وهـو يحكيهـا له ، وكيف قدم له سيجارة ، وأسباب معرفته به ، وصحبته له ، وايامهم معا . . وكل شيء . . ثم يعود لنفس الحكاية .

ـ تعاد قالي بروحه . . بودني سمعتـه . . وبعـدين يجـي واحد يكذبني . .

وتسري همهمة اخرى بين الجالسين ، وتمتد الى الواقفين ، ويرفع جمعة عينيه يقلب الجميع ويختار منهم من يكون نصيبه هذا اليوم الاسود . . ثم ينظر الى الجالس الى جواره ، وكأنه يصدق الرأس المستطيلة . . فيرفع الآخر رأسه في قلق ويقول :

ـ خرف . . التريبونا قاعدة ما كملتش . وما زالوا يبو خدامة مش يلزو القدم .

وينقسم الجميع اثنين اثنين ، او ثلاث ، او مجموعات ، المهم انهم يتحدثون ، وجمعة يقسمهم جميعا . . الضعاف يضعهم ناحية في مخيلته ، والاقوياء في ناحية . . ولا بد ان يبقى الاقوياء ، فالجحيم لا يريد الضعفاء . . ولكنه لا يضمن هذا التقسيم . . ويفكر في ان هذا اليوم قد يصيبه فيقول في عنف . .

ـ ياناس حرام . . شن ناكلو . . الحجر ؟

وتنبسط امامه السلسلة حلقة حلقة . . أمه ، ابوه ، مريومة ، وابنته الصغيرة بوجهها الاصفر وحبيبات حمراء تزرع نفسها على خدودها وتحت عينيها .

وعندما تنتهي فترة القلق ، وتضارب الأقوال ، وترهات الجالس الى جانبه . . وعندما تنتهي تأكيدات صاحب الرأس المستطيلة . . ويجد الجميع انفسهم امام السرجنتي وهو يلوك لسانه ، وصاحب الرأس المستطيلة يهز رأسه في تمايل وكأنه معجب به ، ثم ينخفض صوته ويقول :

ـ زي ما قلت لكم . . كذبتوني في الأول . . اسمعو بودانكم .

ويتداخل العمال في مجموعات يخفون وجوههم عن السرجنتي . . ورئيس العمال الواقف امامه . . ويرفعون الياقات حول اعناقهم ، ويظل كل واحد منهم يهمس بمتاعبه ، وجمعة يغلي ، ولكن هناك امل . . فربما لن يكون هذا اليوم الأسود من نصيبه .

وينظر الى صاحبه الذي رافقه في العربة فيجده يمضغ اسنانه ويلوك لسانه وحبات العرق تتراقص على جبهته وفوق ارنبة انفه ، ويلاحظ اصفراره وضعفه ويبدأ يعزيه . .

ـ لو كان هذا ، يملحوهم وخدمتهم ، اخدم اي خدمة . . معليش .

وكان الاخر ينظر اليه . . ويبتسم ابتسامته القلقة . .

ـ عندي صنعة في ايدي . . حوكي .

ـ حوكي ؟ . .

ثم يبتسم ويربت على كتفه ويقول . .

ـ يلعن خدمتهم ، وعلاش تعذب روحك . . سيب البلا .

وكان جمعة يظن ان صاحبه خلاص ترك العمل وانه في عداد الخارجين .

وعندما اكمل السرجنتي كلامه امتدت اصابعه الى الواقفين واشار الى بعضهم واحدا واحدا . .

ـ يو . . يو . . انديو . .

وابتدأت المجموعات تتناقص والعرق يتفصد من الجباه . . وجمعة يفكر في السلسلة حلقة حلقة حتى آخر حلقة بوجهها الاصفر وحبيبات حمراء تزرع نفسها على خدودها وتحت عينيها . . وصاحبه الى جواره يقول في همس . .

ـ حوكي ؟ قعدت عام من غير خدمة . . وصاحب صنعة .

وجمعة لا يستطيع الرد ، وصوت السرجنتي يموت لبرهة ثم ينادي . .

ـ يو . . يو . . يو . . انديو . . كم اون .

والمجموعات تتناقص ، وجمعة يربت بيده على ظهر صاحبه ويقول :

ـ يلعن هالخدمة واصحابها .

ويسمعه رئيس العمال ، ويهمس في اذن السرجنتي . . وتمتد يده وهو يقول :

ـ يو . . كم اون . . هاري .

والمجموعة تنقص واحدا . . وصاحبه الذي رافقه ينظر اليه وحبات العرق تتراقص على جبهته وفوق أرنبة أنفه . . وصاحب الرأس المستطيلة يخرج من الطابور وهو يرطن بالامريكاني غير مصدق انه من الخارجين . . والسلسلة حلقة حلقة حتى اخرها بوجهها الاصفر وحبيبات حمراء تزرع نفسها

على خدودها وتحت عينيها .

ـ الله يلعن هاذاك اليوم . . الله يلعني انا . . وبوي . . وحتى جدودي .

والنقود التي لم يبق منها الا القليل . . جدا ، وصفحته في دفتر سالم وقد شطب عليها بالقلم وكتب فوقها (باقي جنيه) .

وهدوء الشارع في آخر الليل يتحول الى صخب . . وصوت ارتطام الصفائح والعويل والعراك عند الحنفية في آخر الشارع . . والكرة والغبار حيث يلعب الصغار . . والشاي الاسود يصبغ الاكواب الصغيرة . . وسالم خلف البنك في الدكان وفي يده القلم . . يقرطس اشياء للناس . . للبنات والصغار والرجال المارين بدكانه مرة اخرى . . وفلول العمال تتسرب الى الحي . . وقرقعة من بعيد تهدر في اذن جمعة . . قرقعة حلقات السلسلة . . حلقة حلقة . . حتى آخرها . حلقة وجهها اصفر وحبيبات حمراء تزرع نفسها على خدودها وتحت عينيها .

الصُّندُوقُ الأَخضَر

في أول أيام العيد منذ خمس سنوات مات سالم بين يدي ، اللحظات البسيطة المشحونة بالألم وانا اقف فوق رأسه انظر اليه تعودني كلما اقتربت مني نسمات العيد . . وكان ذلك منذ خمس سنوات وسالم يعولنا جميعا أنا ووالدتي واخي الصغير . . وكانت كلمة العيد محرمة فوق شفاهنا ونظرات الناس تأكلنا جميعا وهي تعلق ابصارها في كبد السماء تبحث عن اللحظات المشرقة لهلال العيد . . نفس اللحظات المؤلمة التي عشتها منذ خمس سنوات وسالم ينظر إليَّ بعينين جاحظتين وانفراجة شفتيه يتسرب منها دم جاف وبطنه ينفخها الماء .

ولم أكن اصدق ان سالما يمكن ان يموت في ذلك اليوم بالذات ، فقد كان يعشق العيد ، وينتظر ان يعيش ايامه لحظات جميلة مشرقة بالامل .

كنت ليلتها اسهر في دكان (عثمان) الى جوار البيت وكان

الجميع يلعبون الـورق ويبتسمـون.وقـد القيت الى جوارهـم الحاجات الصغيرة استعدادا للعيد . . ويومها قال لي عثمان وهو ينظـر الي من خلال خيط الشـاي المتخـذ طريقـه نحـو « اللقامة » :

ـ وين سالم يا محمود .

فأجبت دون انتباه وأنا القي ورقي امام صاحبي . .

ـ في البحر !

حتى ارجعني صوت عثمان وهو يشد ابتسامة ساخرة يتتبع بها خيط الشاي :

ـ يخدم حتى في العيد ؟ لا حول الله !

فأحسست لحظتها كأنه يطعنني من الخلف . . فقـد كان سالم ينظر إليَّ نفس النظرة ويبتسم في شفقة وهو يشدني في رفق من أذني ويقول . .

ـ راك وليت راجل يا محمود . .

فتؤمن والدتي في صوت نسائي مطاط . .

ـ بالله خليه . . لا هي غير في التزوفير !

وكنت احس وأنـا أدلف الى البيت آخـر ايام رمضـان أن سالم يعني الكثير بالنسبة الي . . ففي آخر عيد اشترى لي بذلة كاملة ولأخي الصغير لعبا كثيرة ووعد والدتي بالحج . . وكان يبتسم وهو يضع الخرج فوق كتفه ويمر بي في السهرة ليقول في همس . .

ـ رد بالك من الحوش . . الليلة طالع !

فأحس وأنا أنام فحيح البحـر يلهـب أذنيه ، والموجـات الصغيرة تداعب انفاسه ويده الغليظة تبحث لنا جميعا عن لقمة العيش !

ولم يكن في دارنا في تلك الايام سوى الصندوق الخشبي الاخضر المزين بالنحاس الاصفر وقفله ذي الجرس ، وكانـت والدتي تحرص عليه كل الحرص وتضع في قلبه الخشبي الفارغ اثمن الاشياء . . وكان اثمن شيء بالنسبة لها بذلة العيد التي اشتراهـا سالـم آخـر رمضـان ، البنطلـون الرمـادي المكوي بعناية ، القميص الابيض بياقته المفتوحـة ، والحـذاء الاسـود اللماع . وكنت أحس بها آخر الليل وهي تدق الجرس الرنـان

وتضع يدها في حنان على بذلة « سالم » الانيقـة وتنثر فوقهـا (الزهر)وتتمتم بكلمات غامضة غير مسموعـة ! بينما تستلقـي بذلتي وملابس الصغير فوق المندار دون اي اعتناء .

ولم يكن في خاطري شيء تلك الايام والعيد يشد نفسـه نحو قلوب الناس الا ان تضع والدتي بذلتي انا الاخر في قلب الصندوق الفارغ ذي الجرس الرنان .

في آخر تلك الليلة منذ خمس سنوات ابتسمت وأنا أدلف الى الحجرة وعيناي تلمعان في حمرة من السهر وجسدي ينهكه التعب ، وقلت دون اعتناء .

ـ كل عام وانت بخير . .

فرفعت العجوز نظرها فيّ ؛ وكانت جفونها تحتضن نظرة غريبة فيها انكسار قلبها . . لتقول . .

ـ سالم عطل يا محمود . .

فقلت وانا اشد بسمة ممتعضة ونظري موزع بين الصندوق الاخضر وثيابي الملقاة فوق المندار . . .

ـ توى يوصل . . خايفه عليه !

فلم تزد عن ان تتنهد في صبر . . وكنت احس تنهيداتها خنجرا صغيرا غير رفيق يندس نصله الصغير في قلبي وهو ينظم دقاته، وأنا أنام، حتى صحوت على حركة غريبة بجوار باب البيت ، وصراخ والدتي يمزق قلبها الى نصفين ، وأخي الصغير يجلس في آخر ركن في الحجرة يدعك عينيه ويحاول أن يفهم الحوادث التي توالت في سرعة عجيبة ! وكان سالم في تلك اللحظات مستلقيا فوق مندار وعيناه جاحظتان تنظران إليّ في أسى وكأنهما تعتذران عن العيد ، وكان وجهه متقلصا ، وندبات كأمواج البحر تحفر اخاديد فوق وجهه الاسمر وملامحه الضائعة . وكانت بطنه تبدو امامي كموجة كبيرة عاتية منتفخة . . وجسمه عار لا يستره شيء لا البنطلون الرمادي المكوي بعناية ، ولا القميص الابيض بياقته العريضة . . ورجلاه حافيتان بأظافرهما السوداء وبقايا حشيش اخضر لزج عالق بين أصابعه! وكانت صرخات العجوز تقطعها تعليقات الجيران وهم يستعجلون الوقت لاستقبال العيد . .

- يا ولله ليلة مباركة . .

- شن صار . . غير صبري بالك ؟

- انقلبت بيهم المركب . . لا حول الله . . !

ونظرات سالم تنظر الى السقف ، ولكني كنت احس بها تقلب الجميع وكأنها تعتذر عن حضور العيد !
من يومها والعيد تغرقه الدموع ، والصندوق الأخضر المزين بالنحاس الاصفر مقفل الى الابد ، ومفتاحه يتدلى من آخر « تخليلة » رداء العجوز، وفي قلبه الفارغ الصامت تستلقي في أسى بذلة سالم التي اعدها للعيد !

كان كل ما تركه سالم لنا في ليلة العيد خرجه القديم بلونه الرمادي اللزج . ورائحة السمك تفوح من اعطافه وتغرق (الدار) بجو البحر الصاخب وعلى صفحاته تستلقي نظرات سالم الجاحظة وتقلصات وجهه وانتفاخة بطنه كموجة عاتية تطلب المزيد !

كنا جميعا نحس به ، « والخرج » لا يفارق ركنه المنزوي بجوار الباب طيلة ايام العيد . . وصوت البحر يلوح لي من بعيد عميقا اخضر بلون الحشيش المعلق في رجليه ، وامواجه العالية تشبه بطنه المنتفخة ، والمراكب قبور متحركة تحمل الموتى وتطلب المزيد .

بعدها بشهر احسست ان عيني والدتي تنظران إليَّ بما يشبه

الرجاء ، وكانت بذلتي وملابس الصغير معفرتان وهما تستلقيان في ركن بعيد من أرجاء الحجرة ، والصندوق الاخضر يتنفس في الدار في صمت قاتل وجرسه الرنان أخرسه الليل وتنهدات العجوز حتى قالت لي آخر الامر :

ـ الدين كبر يا محمود . .

وتلمست طريقها في عجز وهي تنظر الي مرة اخرى وكأنها تشك انني فهمت حتى وصلت الى مكان الخرج فاخرجت الشبكة منه والابرة وبقايا الخيوط وجلست في الركن المضيء تحت النافذة تخيط بقايا فتحاتها المتسعة .

من يومها احسست بتجربة البحر ، والموج يلهب اذني ، ويداي المعروقتان تجذبان خيوط الشبكة تبحثان عن الرزق للعجوز واخي الصغير . . ولكني ابدا لم احس بتجربة سالم ليلة العيد وجرس الصندوق الاخضر يفرغ بذلة من قلبه الفارغ الساكن ليلبسها صباح اليوم العيد .

كان كل عيد يمر يقربني من اشراقة عين العجوز وهي تبكي الى جوار الصندوق الاخضر دون ان تجرؤ على فتحه فمنذ جحظت عينا سالم ونحن لا نعرف العيد !

وكنت احرص على ان اعود ليلة العيد في اول الليل . .
وكنت اخشى ان تبلعني ليلة العيد كما بلعت سالم منذ سنوات ، ولكنني كنت دائما البس البذلة التي اعدها لي ، واحرص على ان اتجنب الناس وأنا اشاهدها تنكمش كل عام وبقايا سروالها تضيق عند فخذي وتنحسر عند اسفل الرجلين ، ولكنني كنت احس بنشوة وأنا أرى الصغير يلبس بذلة جديدة ويخرج الى الشارع ليقف عند شاطىء البحر يصفر بالصمارة ويشتري (العاشورة) او يشارك الاطفال في التأرجح في (اللويده) . . شيء صغير كان يقف عند باب قلبي ويقفله امام فرحة العيد . . دمعات العجوز ورنين جرس الصندوق الاخرس ، وبقايا التراب وهي تحضن لمعات نحاسه الاصفر .

حتى كان الامس ، والمدينة يلهب انفاسها الحرى ، ومسحة غامضة رمادية تظلل سطح البحر ، والناس تتهامس بالعيد . . وبذلة الصغير ملقاة فوق المندار بجوار الصندوق ونظرته الساذجة الفرحة تسرق من الاغفاءة نظرة حانية اليها وهو يمني نفسه بأول ايام العيد . . وعندما وضعت الخرج فوق كتفي جاءني صوتها غائما بعيدا تظلله مسحة من الشك :

ـ زعما غدوه عيد . . يا محمود ؟ . .

فاحسست بصرخة مكتومة تتردد اصداؤ ها في احشائي ، واصابني دوار يشبه دوار العاصفة ووقفت يدي وهي تفتح الباب ، وبرزت في الظلام عينا « سالم » وهما تنظران الى السقف وكأنهما تعتذران عن حضور العيد . .

ـ يمكن . . ما زال ما تبتش . . !

فأخرجت من قلبها كلمات حانية فيها الكثير من الحب . .

ـ وشن تلبس يا محمود ؟ !

فانتابني شعور غامض بانني قد لا اعود . . وتمثلت الصغير وبذلته الجديدة بلون الغبار ، والقيت نظرة لا شعورية على ارض البيت ثم على السقف ورنت في اذني همسات الموج الصاخبة واحسست بالمركب تهتز تحت رجلي . . والناس يحملونني فوق اكتافهم وأنا اموت . . حتى ردني صوتها مرة اخرى وهي تقول :

ـ ما تعطلش سلم ولدي !

ولم تفارقني هذه الكلمات حتى فتحت باب البيت آخر الليل وكلمات « عثمان » تدفعني الى النوم . .

ـ مبحبحة يا حميدة . . كل عام وانتم بخير . .

وفي لحظتها اكلني التعب وسلاسل لامرئية من موج البحر وهمسات السمك ونسمات البحر تشدني الى الغطيط ، حتى افقت مذعورا وصوت المفتاح يدور في الصندوق الاخضر وجرسه المبحوح يدق دقات خافتة والتراب ينهال في كسل من فوق نحاسه الاصفر ولمعة شعاع الشمس تنعكس مصفرة فوقه والعجوز تبتسم وهي تخرج بذلة سالم ، وتنفض عنها بقايا الزهر .

وتمتمت بكلمات غامضة هامسة غير مفهومة وهي تشدني من النوم وشعاع باسم من عينيها .

وقدر الماء يغلي فوق النار وصوت صفارة الصغير تصلني وهو يدور بها في أرجاء البيت والامل المشرق يطرد اشباح خمس سنوات مضت والعجوز تقول في فرحة كابتسامة الاطفال وهي تضع البنطلون الرمادي فوق الكرسي وتفتح ازرار القميص الابيض بياقته العريضة ثم تمسح بطرف ردائها الحذاء الاسود اللماع وتحشيه بجورب جديد . .
ـ هيا نوض . . البس هالكسوة وصلي العيد . .

فأحسست بغصة فرحـة وأنـا اردد كلماتهـا بـين اضلعـي واقول مختنقا بالدمع متمتما بشفتي فوق جبينها المعروق .

ـ كل عام وانت بخير . .

وبهجة لامرئية مشرقة بلون لمعان الخشب تطلي الصندوق الخشبي الاخضر وتدفع نحاسه الاصفر الى الابتسام .

عَاشُور

منذ يومين سقط عاشور !

وكان ذلك في آخر النهار . . في نفس الوقت عندما تنحدر الشمس حمراء يأكلها الافق ، وتمتد اذرع ضخمة سوداء تبلعها في صمت .

وكان عاشـور واقفـا في أول الطابـور ، ويداه موثوقتـان وراءه ، وفوق جبهته جرح عميق ملطخ بالدم . وكنت اقف امام الخيمة خلف طابور العساكر وعيناي تبتلعـان دموعـي في صمت ! كنت احس انه لن يموت .

منذ شهرين فقط كان (عاشور) يجلس معي تحت النخلة في الوسعاية ويحكي لي الكثير ، وكانت جبهته العريضة تلمع تحت الشمس ، وعيناه تبتسمان وهو يحدثني عن (الزينة) .

ـ بعد شهر . . اللحمة ياخوي !

وتهزني نشوة صغيرة وأنا افتح فمي في فرح .
ـ وديني لاني راقص في فرحك . . !

ويظل يحكي كالاطفال ، ومئات الحاجات الصغيرة تتدفق من قلبه وصورة (الزينة) يلعب بها الهواء في فضاء الوسعاية .

وكان ذلك آخر لقاء . . ففي الصباح والمدينة تفتح عيونها للشمس ، فتح الرجال صدورهم للرصاص . . وكانت أفواج الجنود تتدفق من البحر تغزو المدينة كالجراد !

في ذلك الصباح احسست انني لن أعيش . . ولم يكن في خاطري عاشور. كنت احس مئات العائلات تنقل مكانها من حينا الذي سكناه من زمن ، وكانت أفواجهم تغلق الازقة والنساء غير محجبات يجمعن الاطفال ، والرجال يبحثون عن سلاح . . وكان الجو كله معبقا برائحة البارود ، والخوف كابوس كبير يظلل بأنفاسه الحيطان ، ويطرد السكان ، ويجثم بظله القاتم فوق البيوت ، وجحافل الجنود تتقدم وأمامها العلم الايطالي المثلث الالوان ، وظله القاتم يسير الى جواره يغطي السواني والحيطان ، ويسكن في الوسعاية حيث نصبت خيم الجنود .

يومها لم يبق في حينا الا جثث الموتى . . ومريم . . وحفنة من الرجال اقعدهم الخوف كنت انا احدهم . . وعندما وقفنا امام الضابط . وحافة (السناكي) موجهة الى قلوبنا ، ابتسمت له في خوف ، وقلت وأنا انظر اليه وهو يقف أمامي كشجرة النخيل الطويلة . .

- أنا مادرت شيء يا عرفي . . وديني مادرت حاجة !

فقد كنت اخشى ان اموت . . وكنت اقلب عيني في جثث الرجال والاطفال والنساء ، واحب ان اعيش . . وكانت (مريم) ممزقة الثياب . . وطرف ردائها مبقع بالدم ، وفي عينيها نظرة كسيرة ووشامها الاخضر ملطخ بالوحل .

- باهي يا عرفي . . اللي تبيه انديره !

وكنت أحس بنظرته تأكلني . . ولم يكن بخاطري شيء . . حتى عاشور لم اعد اذكره ، فقد كنت خائفا ، وكنت اريد ان اعيش . !

كانت الوسعاية في ذلك الصباح تعج بالحركة . . وجثث الموتى ينقلها الجنود ويرمونها في حفرة كبيرة بلا صلاة . .

ونظرات (مريم) الكسيرة تمر بها فوق البيوت . . ووشامها الاخضر يقطر مرارة أمام عيني وطرف ردائها يمزقه الجنود . . ونظرة الضابط تخترق ثيابي لتسكن حادة حارقة في كبدي . .

ـ غير شن ندير بس ؟ !

وانطلق صوت المترجم يعدد لي اشياء كثيرة . .

ـ اشكون اللي يحارب في الطليان ؟ !

وابتسمت في ضراعة وخوف . . فقد كنت أحس ذلك الصباح انني غريب ولا اعرف اي انسان . . فالجميع يحاربون الطليان ، الا انا وحفنة من الرجال قتلهم الخوف .

وابتسم الضابط والمترجم يعيد عليّ سؤاله السابق . . وكنت اقلب وجوه الحفنة الواقفة الى جواري ، فأحس انني لن استطيع ان احصي من يحارب الطليان . حتى النساء لم يبق منهن الا مريم بنظرتها الكسيرة ، ووشامها الذي يقطر مرارة . . وطرف ردائها يدوسه الجنود .

وبحركة من الضابط وضعنا جميعا في خيمة على بابها حارسان . . ووضعت (مريم) في خيمة اخرى في أحد

اطراف المعسكر . . وكنت احس بها على الرغم من كل شيء قريبة مني ! كنت احس بوشامها مرسوما امامي ونظرة عينيها يكسرها الجنود .

لم يكن معسكر الوسعاية ينام . . كنت اسمع تحركات الجنود ، وصرخات جرحاهم وصوت (البارازان) مبحوحا يقتله الرعب وهم يدفنون موتاهم . . وكنت احس بالمقاومة تزادد كلما اشتد نواح (البارازان) وازداد حفر القبور ، وضمت خيمة جديدة لخيم الجرحى! ولكني كنت دائما خائفا ، وكنت احب ان اعيش .

حتى جاء يوم ساقني فيه احد الجنود الى خيمة الضابط . . وكنت احس بالتعب . . وعيناي يأكلهما ظل قماش الخيمة ، وهزة تتعب اعصابي وأنا اتصور انني مساق الى الاعدام . . لكن الضابط نظر إليَّ من وراء مكتبه الغارق في الاوراق . . وقال لي الترجمان :

ـ تعرف عاشور !!

واحسست ان شيئا قديما في اعماقي يتحرك . . احسست بجبهة عاشور تلمع تحت الشمس سمراء كأعراف الحنطة

وشعرت بكلماته البيضاء كحديث الاطفال ترن في اذني . . وابتسمت فلكزني الجندي الواقف ورائي بمؤخرة بندقيته . . وجاءني صوت الضابط تتحرك به شفتا الترجمان .

ـ وين عاشور ؟

وارتسمت على وجهي نظرة بلهاء ، وانا اشد سؤالا غبيا الى لساني :

ـ علاش يا عرفي . . شن دار ؟ !

وصفعني الضابط وصوته يتحرك به فك الترجمان . .

ـ عاشور فلاق يحارب في ايطاليا . .

ولقد كنت خائفا وكنت احب ان أعيش ، ولكنني لم أستطع ان أمنع نفسي من الاعجاب بعاشور .

ـ ولد شكون هالعاشور . . وين عيلته ! ؟

وأحسست للحظة بسيطة أنني أخوه ، وأنه من عائلتي ، وأنه ابن لنا جميعا ، حتى نحن الحفنة البسيطة من الرجال التي أقعدها الخوف ، حتى (مريم) وطرف ردائها يلطخه

التراب !

ليلتها لم انم . . كان عاشور يعيش معي ، وأنا اخاف أن أموت وهو يقاتل في مكان ما داخل السور أو خارجه ومع ذلك فقد كنت احس به داخل المعسكر وأنات جرحاهم تصلني خافتة ، (والبارازان) ينوح وكأنه يموت ! .

ومنذ يومين . . يومين فقط سقط عاشور !

وكان ذلك في آخر النهار والشمس حمراء تقطر بالدم ، وعاشور واقف في اول الطابور وصدره للجنود . . وكان الضابط ينظر اليه من فتحة خيمته وفي عينيه تشف وخوف ، والترجمان مختبىء وراء الخيمة وظله يرتعش على التراب . . وعندما انطلق الرصاص ، انكفأ وجه عاشور على التراب ، وغاصت جبهته السمراء في الارض وصاحت (مريم) صيحة جريحة ! وظل فاقع لوجه (الزينة) يلعب به البارود في جو الوسعاية ويفسده .

وكان ذلك آخر لقاء لي مع عاشور .

كنت احس والجنود ينقلون جثته انني أنا نفسي أموت . . وان (البارازان) يفقد بحته ، ويصفي صوته ، وظل العلم البغيض يظلل الجميع . . حتى كان آخر الليل عندما سمعت

صوت الحركة المعتادة لتحركات الجنود وخطاهم الواسعة الخائفة تبحث عن السلاح ، والضابط ينكمش من وراء الفتحة المطلة من خيمته ، وظل الترجمان يرتجف تحت ضوء القمر ، وحفنة الرجال النائمين معي في الخيمة تصدر همهمة خائفة مرتعبة . . ووجه (مريم) يلمع في آخر المعسكر ووشامها يرتعش بالحقد! عندئذ عرفت ان (عاشنور) لم يمت . . فقد كنت احس انه لن يموت . . انه يعيش في مكان ما داخل السور او خارجه يقاتل الطليان . . وكنت اريد ان القاه . . كنت احب ان اقف الى جواره واسمع صوته ، وأضع يدي في يده ، وأحكي له عن الكثير . . حتى استطعت ان أغافل الحرس ، وصوت البارود يخفيهم وراء النخيل . . وهربت . . هربت من حفنة الرجال و (مريم) تستقبلني بنظراتها آخر المعسكر ، ووشامها يبتسم الي وأنا ازحف من نخلة الى اخرى حتى فت آخر خيمة ،فوضعت طرف (سوريتي) في اسناني ، وضمني فضاء (السواني) وأنا انهب الطريق الى خارج السور . . ووشام (مريم) يدفعني الى الجري . . وعاشور يبتسم الي ويمد يديه في حرارة وهو يستقبلني في آخر الافق . . خارج السور !

انشراح

قالت لي انشراح وبسمة مضيئة تطل بين شفتيها . .

- صباح الخير . .

وكانت عيناها تلمعان تحت ضوء الصباح المشرق . . وبين جفنيها اشعة الصباح المضيئة . . ونظرة آملة تطوف بوجهها الصغير . .

وكان رأسي يطوف باشياء كثيرة . . الاكواب السوداء التي كنت اعبها في آخر الليل . . واعقاب السجاير تلتقي في احضان ارض الحجرة . . ساكنة سوداء . . والصوت الصغير يبتسم تحت ظل الصباح وكلمات آملة ضعيفة تهتز معلقة في الجو .

- رايح فين النهار ده ؟ !

واكثر من ألف صفحة . . أكثر من مليون كلمة . . أكثر من خط يسيطر على عقلي . . ويقلب بياضه الى سواد . . لا بل

الى لون احمر . . فقد كنت أخط في الليل بالاحمر . . بالقلم الاحمر وبجواري الكوب الاسود . . وصوت غليظ .

ـ صب يا خوي !

وأعقاب السجاير ملقاة على الارض . . جثثا حقيرة . . سوداء . . ساكنة !

وكان الصباح مشرقا ذلك اليوم . . وانشراح تطوف بعينيها في الفضاء أمام البيت . . وتلعب بيديها في الهواء . . ومن تحت فستانها القصير تمتد رجلاها الصغيرتان البيضاوان . . حتى اخرهما حيث تلتقيان بالارض . . في حفاء ! ولكنها كانت تبتسم . . وصوتها الصغير يهتز في ارتخاء معلقا في الهواء المنعش . .

ـ انت لسه صاحي . . انا وماما نصحى بادري . . قبل بابا !

ويمتد خط الافق . . حيث يلتقي الخيط الابيض بالخيط الاسود . . لا بل بالخيط الاحمر . . فقد كان في يدي قلم احمر . . طويل . . وكانت أكثر من ألف صفحة . . أكثر من

ألف ألف كلمة والسواد في الكوب . . وأعقاب السجاير . .
وكنت أحس انني انسان صغير .

في نفس ذلك الصباح وانشراح تبتسم للصباح كنت احس انني قزم تافه لا أساوي الكثير . . وكان يجذبني الى الاعماق سؤال حائر معلق بين شفتي . . وأكثر من سؤال غامض مكتوب على ورق . . وخيمة كبيرة بابها كالوحش واصداء . . وعلبة السجاير . . والسواد دائما في الكوب !

وكانت المشكلة دائما تصل الى هذا اليوم . .

منذ أول السنة . . وانشراح تضحك للصباح . . واضحك معها للشمس !

عندما سكنت في الشقة المجاورة لهم ، كانت انشراح تراقبني من وراء الباب . . وكانت احدى عينيها تراقبني من قريب . . وعندما أبتعد كانت تظهر رأسها الصغير بشعرها المنفوش . . ثم تبرز باقي جسمها ، وانا ادلف الى الشارع الكبير وهي تلاحقني بنظراتها حتى اغيب . .

وعندما أرجع وأدق برجلي أرض الممر كانت انشراح تختفي بسرعة وراء الباب ، وتقول في صوت ساذج فيه رنة خوف . .

ـ ماما . . الراجل رجع . !

واسمع لغطا وراء الباب . . وأحس انني موضوع الحديث . . اشعر ان هذا القلب الصغير يخافني وانه يخشى ان اصيبه بشيء . . حتى ابتسمت لي انشراح في يوم . . ووقفت بعيدا عني في يوم اخر . . ثم أومأت اليها فابتسمت في وجل . . وابتدأت الشقة بيننا تقرب رويدا . . رويدا .

ومع قطعة او قطعتين من الشيكولاته . . قالت لي انشراح وصوتها الخائف يرتجف في حلقها الجاف . .

ـ سعيده ياعمي . .

وكنت ايامها لا احس بشيء . . كنت انسانا كبيرا . . في قلبي اشياء . . ولكن عقلي ابيض ليس فيه خطوط سوداء او حمراء . . وارض حجرتي دائما نظيفة . . واعقاب السجاير ترقد في الطفاية . . ميتة . . ولكن في احترام !

حتى هذه الايام . .

عندما قال لي الانسان الذي يعيش معي في صوت غليظ . .

ـ صب ياخوي !

وسكبت له السائل الاسود . . ورميت اول اعقابي ميتـا حقـيرا على الارض . . وامتـد خيط اسـود عميق يلـون الصفحـات . . وازدادت الـكلمات الصغـيرة . . عندهـا احسسـت انني أذوب . . ان هنـاك شيئـا في داخلي يتحلل ويصيبه الصدأ .

وكانت انشراح تبتسم ابتسامتها الصغيرة . . وتمد يدها في توسل وتقول :

ـ انـت ما خرجتش النهـار ده . . أمـال فـين الشيكولاته ؟ !!

وأحس ان قلبي يكاد ينخلع . . وان القلـم الاسـود كالمبضع المتسخ يشقه الى نصفـين . . وعندمـا أمـد لهـا يدي بنصف قرش . . كانت تنظر الي في عجب . . وتتسع عيناها .

ـ وانت زعلان ليه ؟ !

ثم تصمت قليلا وتقول . .

ـ الله !!

وكانت « الله » معلقة في اعماقي . . شيئا غامضا مثيرا يصبغ الصباح . . وخيمة كبيرة بابها كالوحش فاغرا فمه . . واصداء . . واصوات . . وسؤال حائر قلق معلق بين شفتي . . واسئلة غامضة مثيرة يحضنها الورق . .

وعلى باب الخيمة كان صوت انشراح لا يزال معلقا في الجو :

ـ سعيدة يا عمي . . اوعى تنسى !

ووجهها الصغير . . وابتسامتها المضيئة . . ولمعان عينيها . . يطردها القلم وأنا اكتب على الورق . . وكلما قلبت صفحة ابتسمت في وجهي عينا انشراح . . ولمعت بسمتها حتى يطردها القلم لتبدأ من جديد . .

وعندما خرجت كنت اصطاد طالبا بين الجموع . . وكنت احس انه يمكن ان ينقذني . . حتى وجدته فقال في لهفة . .

ـ ايه . . عملت ايه ! امتحان ابن كلب !

ولمعت ابتسامة انشراح . . وأضاءت عيناها قلبي المتعب . . فقلت . .

ـ اديني ثلاثة صاغ عايز اشتري شيكولاته . .

وعندما تركته كان يطفىء عقب سيجارته في أسى . . ويودعني بنظرة خبيثة لا تخلو من رثاء . .

الممرّ المظلم

الساعــة الثـانية بعــد منتصف الليل عندمــا تركتنـي (فرنسواز) ، كانت جفونها الطويلة ترتفع وتنخفض وعيناها تغطيهما ضبابـة رمـادية ، وأنفاسهـا تبطـيء والنـوم اللــذيذ يداعبها . . وكنـت أحـب ان انـام ، فاسـتلقيت على السرير وجذبت نفسا عميقا من سيجارتي وأحسست بارتخـاء ، فقد كنت تعبا ، وكانت سلاسل حوادث اليوم تجرني الى الاغفاءة اللذيذة . . والف خاطر يدفعني الى النوم . .

قبل ان تدخل (فرانسواز) كنت قد رجعـت لتـوي من المقهى ، وكان اليوم شاقا ومتعبا . . وبجوار صندوق الخطابات مددت عيني في تعب ابحـث عن شيء جديد . عن خبـر . . ولكنهـم لم يرسلـوا شيئـا . . جميعهـم لم يرسلـوا شيئـا . . وأحسست بالقلق ، وامتدت سلسلة جديدة من التعب تجذبني الى النوم ، كنت احب ان انام قبل ان تدخل (فرانسواز) . . لم أكن أريد أن أراها ذلك اليوم . . وعندما فتحت باب الشقة

همدت عيناي والظلام الذي يطغى على الممر يصيبني بشعور من الخوف والرهبة . . أنا لا أدري لماذا لا يدخلون النور . . سبعون مرة أكلمهم عن نور الممر . . وكانت (المدام) تهز رأسها في ارتخاء وتنحني علي وتقول في لهجة جافة . .

ـ غدا . . أنا أؤكد لك انهم سيركبونه غدا . . !

واظل أنتظر الغد . . ورجلاي ترتطمان بالارض والظلام يلف الممر . . وكنت لا أحب الظلام . . خاصة هذا الممر المظلم الطويل.وعلى حين غفلة لاحظت انفراجة باب الحجرة في آخر الممر . . الباب الملاصق لحجرتي يتسرب منها خيط من الضوء . . كنت احب دائما أن يسكن هذه الحجرة انسان . . ففي آخر الليل عندما يداعب (فرانسواز) النوم ، وتتهدل عيناها ، وترتخي جفونها وتتركني ، واتبعها بنظري وهي تعبر الممر المظلم كنت أحس بالوحشة ، وبأنني غريب . . وأن كلمة من انسان قد تصنع لي الكثير . . ولم يكن هناك اي خطاب طوال هذه العشرة ايام . . الكلمة الوحيدة التي تصلني من هناك يعذبها الخوف ويأكل أسلوبها الارهاب . . وكنت احس دائما بحجرتي كزنزانة . وفي آخر الليل عندما تغمرني

الوحشة وتدب في حجرتـي نزنـزات السـكون . . ويهـدأ كل شيء . . أشعر للحظة أن هناك ارجلا تمر في الممر المظلم . . وأحس بها تقترب . . أحس بها تقطع الممر الطويل في صبر . . وتقترب . . ويرتفع صوت ارتطامها بالارض . . وأرفع رأسي عن المخدة وأظل اسمع . . وتواصل الارجل سيرها والظـلام يلف الممـر الطـويل . . وارتعـاش انسـان وانفاسـه تلهـب السكون .

ويخفـت السـكون . . وأسمـع انسانـا يتحـرك في جلبـة وصـوت ملابسـه يلامسهـا الهـواء . . واسنانـه ترتعش من البرد . . ويداه في جيوبه . . وأحس به يسعـل وهـو يقتـرب ويقف امام حجرتي . . ويغمره السكون للحظـة . . ورأسي معلق بعيدا عن المخدة . . وأنا انتظر أن يدق بيده على الباب وفي نفسي قلق معلق . .

ـ خطاب . .

وأهب بقوة وافتح الباب فيغمر حجرتي السكون ويتسرب اليها ظلام الممر . . . وأحس بضحكة يائسة يبعثهـا السـكون وتغلفها الوحشة . . ولا انام . .

في آخر خطاب احسست بوحشة أخي وهو يكتب الي .

كنت أتصور ابتسامته الصغيرة وعينيه السوداوين ، وصدره العالي . . والاخضرار الذي يلون ما فوق شفته العليا . . وكنت احس انه يكتب بعنف وانه يحس مثلي . . بالظلام .

قال لي في آخر خطاب أنني وحشته . . وأن شارعنا المترب تلطخه الامطار في فصل الشتاء ، وأنهم جميعاً يجلسون في الدكان في آخر الليل يشربون الشاي ويدخنون .

وكان يقول لي الكثير . . وكنت احس بغصته وهو يكتب لي .

فعندما يأكلني الظلام وتنام على صدري (فرانسواز) وأحدثها عنه كانت تبلع ريقها وتنظر الى صورته الموجودة الى جوار السرير . . وتبتسم ابتسامة خافتة ثم تقول . .

ـ انه يشبهك كثيرا . . ولكنه اجمل منك ؟ !

عشرة ايام ازدادت فيها الوحشة والقلق . . والظلام الذي يغلف الممر المظلم ، ورجلاي ترتطمان بالارض وسلاسل التعب تدفعني بسرعة الى النوم .

وكنت اريد ان أنام قبل أن تأتي إليّ (فرانسواز)

كنت أريدها أن لا تأتي ذلك اليوم . .

عندما وصلت باب حجرتي ووضعت المفتاح في الباب لم اتمالك نفسي من القاء نظرة فضول على الحجرة المجاورة .

كنت احب ان أعرف الساكن الجديد . . والنور المتسرب من انفراجة الباب يلقي خيطا ابيض ناصعا وسط الظلام . . والسكون . .وعندماسرقت أول نظرةلم أر الكثير غير ماتسمح به انفراجة الباب ربع المرآة . . حوض الغسيل ، وحنفية الماء البارد ، وفوق نصف لوح الزجاج عدة زجاجات وألواح أخرى .

ووقفت يدي على المفتاح وأنا أحركه في ثقب الباب . . وكان هناك شعور فضولي عجيب يبعثني الى معرفة الساكن الجديد . . الانسان الذي يشاركني الظلام والسكون والخطوات المبهمة التي يعمر بها الممر في آخر الليل . . ولكنني كنت تعبا واريد ان انام . . ونظراتي المتعبة التي سرقها صندوق الخطابات ، وعشرة أيام انتظر خطابا منهم .

انهم لا يكتبون . . جميعهم لا يكتبون . . حتى عندما أقرأ خطاباتهم القديمة أحس انهم يكتبون بأحرف يأكلها الظلام وأسلوب يعذبه الارهاب .

آخر مرة أخبرني الصغير بأشياء قليلة فيها أمل . . قال لي بخطوط رفيعة مرتعشة أنه يكتب الي من وسط الدكان ، وبراد الشاي يغلي فوق النار . . والجماعة تعلب (الكارتة) ولكنه يذاكر في زاوية من الدكان ، وانه سوف ينجح . . وأنه سوف يدخل كلية الطب .

وتصورته وجبهته العريضة تلمع تحت مصباح حجرة العمليات الكبيرة . . ولونه الاسمر الغامق ، وشواربه المخضرة والمشرط في يديه واكثر من ممرضة ومساعد تحت امره . . وانسان يعالجه .

وابتسمت . . وأحسست بلذة الامل . . سوف اعالجهم جميعا . . . كان يكتب الي . . وأحس به يبتسم وهو يعالجهم جميعا .

كان دائما يحدثني عن الاطفال الذين يعذبهم الرمد . . مبروك ولد عمك محمد لا بد له من عملية . . فاطمة بنت

السيد عينها فيها نقطة . . وانني أنـا نفسي مريض . .وإننـي سوف اموت من السجاير والنساء . . وانه سوف يكون طبيبي الخـاص . . واشياء صغـيرة مفرحـة . . وزاوية الـدكان . . وكتاب صغير في يديه ، وشارعنا المترب عندما يلطخـه المطـر في الشتـاء !

عندمـا دخلـت حجرتـي أحسسـت مرة أخـرى بالتعـب وسلاسـل النهـار تأكل اعصابـي واننـي اريد أن أنـام و (فرانسواز) سوف تأتي بعد قليل ، وأنني احب أن تتأخـر اليوم . . فأنا اريد أن أنام !

بالامس لعبت معي لعبة سخيفة . . عندما سمعتها تفتح باب الشقة لم أفتح لها باب الحجرة ، ولكنهـا دقـت البـاب في عنف . . وقالت وصوتها فيه فرحة :

ـ افتح بسرعة يا عزيزي . . معي خطاب !

وفتحت لها بسرعة وثبـت عيني في شغف بيديها ووجدتها تضحك، ويداها يلعب بهما الهواء ويلونهما ضوء الحجرة الخافت والممر من ورائها يأكله الظلام . . الممر الطـويل الـذي يعمـر بالخطوات في آخر الليل . . !

سوف اقول لها انني أريد أن أنام . . ان هذه الليلة لا بد أن أنام . . وعلى الرغم من أنني أخشى السكون والظلام والخطوات الغريبة في الممر الطويل المظلم ، فسوف أنام اليوم وأنفاس الانسان المجهول في الحجرة المجاورة تقاسمني الظلام !

بمجرد ان القيت بنفسي فوق السرير أحسست بعيني تنتقلان اليه . . كنت اشاهده وهو ينظر الي بابتسامته العريضة واسنانه البيضاء التي لا تلطخها السجاير وشعره الاسود الفاحم وبشرته السمراء كحبوب الحنطة . . ترى ما الذي يفعله الان ؟ ! . . ولكنه سوف يحدثني في خطابه القادم . . سوف يقول لي أشياء غريبة صغيرة . . وسوف يكتب الي . . انه دائما يكتب الي . . ربما في ألم . . ربما لاحظت في بعض سطوره اشباح الظلام وانفاس شارعنا وأيد ضخمة كريهة تكتمها آخر الليل وأول النهار . . ولكنه عندما يقول لي أنني وحشته وأنه يذاكر في ركن الدكان ويشرب الشاي ، وانه سوف يصبح طبيبا يعالج الناس ويلبس البالطو الابيض وجبهته السمراء يضيئها مصباح حجرة العمليات الكبير، أحس دائما بالامل .

غدا سوف يصلني منه خطاب . . غدا .

انا لا اعرف لماذا تأخر عشرة ايام . . ولكنه سوف يكتب الي ، وسوف يصلني خطابه غدا . . غدا .

وتأخذني الاغفاءة . . نفس الاغفاءة اللذيذة التي تنتزع عن صدري كل هموم اليوم وسلاسل التعب . . وانفاس الانسان المجاور تصعد في ارتخاء وتعيش في أركان الممر الطويل المظلم وتبعث الي الانسة وتطرد الاشباح .

أنا لا ادري كم نمت . . ولكنني أحسست بشيء من الارتياح ، وأنا أنسى لمدة تعب اليوم . . المهم أنني استرحت حتى ايقظني صوت الباب تفتحه (فرانسواز) . .

ـ كسلان . . النوم . . النوم . . انك تموت يا عزيزي !

وابتسمت ابتسامة صغيرة وأنا احتضنها وأضع شفتي في كسل فوق شفتيها .

ـ لا خطاب ! ؟ هيه

ورمقتني بنظرة فيها سخرية . . وهزت رأسها في

افتعال . .

ـ لا خطاب ، لا اليوم ولا الغد . . انهم ينسونك يا عزيزي !

وأحسست أنني قد اصدقها . . عشرة ايام والصغير لا يكتب لي . . انهم جميعا لا يكتبون . . وحروفهم يأكلها الظلام ويخفيها الخوف . .

ـ ربما . .

الا الصغير .

قال لي في آخر خطاب انه سوف يكتب الي باستمرار يوما بعد يوم . . سوف يحدثني عن اصدقائه الجدد وعن الشارع المترب الذي تدب فيه الحياة من جديد . . وابتسمت . . « شارعنا » .

قال لي انهم يجتمعون . . أنا لا أدري كيف . . سرا ! ؟ قال لي في السر . . وضحكت يومها وأنا اتصورهم والظلام يخفيهم وجباههم السمراء تلمع في الظلام وعيونهم تبحث عن منفذ . . وأسرارهم .

حتى قال لي أن « عمار » مات . . قتل . . في الانحناءة عند التقاء شارعنا بالطريق المرصوف أمام باب احدى الفيلات .

ولم يكن عمار على رأس المظاهرة ولكنه كان يهتف كالمجنون ، وكان هناك بوليس والناس يأكلها الحماس .

وعندما سقط عمار والدم يتفجر من شريانه قال لي الصغير أنه احتضنه ، وأنه يود ان يكون قد انتهى من دراسته ليعالجه . . وكنت احس بدمعته يختم بها الخطاب .

وكان ذلك اخر خطاب ولكنه غدا . . سوف يقول لي كل شيء . .

كانت فرانسواز تتحدث باستمرار وهي تساوي شعرها أمام المرآة ثم تخلع معطفها وتلقي بجسمها الناصع الجميل الى جواري على السرير . . وعندما طوقتني بيدها ، قالت وهي تهم باعطائي قبلة . . وابتسامة خبيثة ترتسم على شفتيها . .

ـ الا ترى أنه يرى الكثير . . أدر وجه الصورة على الاقل . . !

كنت اريد ألا تأتي « فرانسـواز » ذلك المسـاء . . كنـت اريد ان احس ساعة ارتخاء . . وأن افكر في الكثير . . . خاصة شارعنا المترب عندما يلطخه المطـر . . ويدا الصغـير وعليهما بقع حمراء يحضن بهما عمار .

ولكن لماذا لم يكتبوا الي . . انهم جميعا لم يكتبوا منذ عشرة ايام . . .

ـ قابلت « جان » اليوم وهي تسلم عليك . .

عشرة ايام . . ولا خطاب ، الجو الخانق الذي تحيطني به « فرانسواز » ، ورائحتها وهي تضمني الى صدرها . . وعيناها المسبلتان في نشوة . . وارتخاء عضلاتها . . وشعرها المبعثر على المخدة .

ـ جان ؟ !

وتظل تتكلم بسرعة وعيناي تبحثان عن شيء في الغرفة . . شيء جديد . . حتى تقعان عليه .

آخر مرة كان خطابه طويلا حدثني عن الـذين يسكنـون شارعنا المترب . . قال لي ان مختار سجنوه وانه لن يخـرج من

السجن قبل عامين . . ورجاني ان اسامحه فقد دفع ثمن الجرائد التي سيرسلها الى الذين يجمعون النقود لزوجه مختار وان الجميع بخير ووالدتي تخاف عليه أكثر مما تخاف علي ، وأنه سوف يرسل الي باستمرار وانه سوف يقول لي اشياء جديدة يصنعها في الليل . . وأنهم يستعدون لعمل جديد . . جديد ؟ ! . .

واحس بجو من الاسرار . . والليل . . . وشارعنا المترب . . وبالظلام والموت . . واحس بأنني بعيد ، وانني اخاف عليه . . وان الممر الطويل المظلم يمتد . . يمتد وانه لن ينتهي. .واميال طويلة يغمرها الظلام ويلفها السكون .

ـ اوه . . . ولكنها لا تستمع الي . .

أنا لم اكن اريدها أن تأتي ذلك المساء . . كنت اريد أن أنام وأتخلص من سلسلة التعب التي تحيط بعنقي . .

ـ كنت تقولين ؟ !

وضحكت ، وارتخى عنقها وهي تسحب يدي من تحت عنقها وتحاول ان تشغل نفسها بشيء بعيد عني .

ـ سوف أقرأ الجريدة اذن !

وأحس انني سخيف وقاسٍ ، وان فرانسواز في لحظات كثيرة كانت تمثل لي الكثير . .

ـ ليس هناك من جديد . . الخنازير انهم يعيدون نفس الاخبار . . !

وسحبت من يدها الجريدة والقيتها الى جوار صورة الصغير . . ثم امتد خيط صغير من الضوء ، داخل الممر الطويل المظلم ، والساكن الجديد يفتح باب حجرته نصف فتحة وصوت اغنية هادئة يطرد السكون من جوانب الممر وأنفاسنا جميعا يبلعها الليل .

عندما تركتني (فرانسواز) ابتسمت لها وهي تقفل باب الحجرة في هدوء وخطواتها الرشيقة الخفيفة تعبر الممر وصوتها يرن في أذني . .

ـ الى الغد . .

الغد . . ربما وصلني خطاب منه غدا . . أنا لا اعرف ما الذي أخره . . ربما نسي الموزع أن يمر علي اليوم ، فقد قال

الصغير أنه سيراسلني باستمرار يوما بعد يوم . . . . وكنت اريد ان أنام . . أن أنسى كل الحوادث وأن أحس بالارتخاء وكلمات فرانسواز والاغنية الهادئة والممر المظلم ، ونور الانسان المجهول يمتد كخيط ابيض نحيف .

لم يكن هناك في الجريدة ما يدعو الى الاهتمام . . الخنازير . . انهم يعيدون نفس الاخبار . . ولكن في ركن صغير داخل اطار اسود مكتوب بحروف صغيرة لا تبين كانوا يتحدثون عنهم . . عنه . . عن شارعنا المترب عندما يلطخه المطر وتعبره اقدام الرجال . . آلاف منهم يصيحون في جنون ويهتفون . . ولقد سقط منهم ثلاثون على حافة الطريق تماما عند التقاء الشوارع بالطريق المرصوف . . وكان ذلك منذ ثلاثة ايام . . ومنذ عشرة أيام لم استلم أي خطاب .

آخر مرة قال لي انه سيكتب الي باستمرار يوما بعد يوم، وغمرني شعور خبيث مخيف حبس انفاسي لمدة،وقفل الانسان الجديد الانفراجة في باب حجرته فسمعت صرير الباب . . واسكت الاغنية وامتد على الممر الطويل ظلام قاتم، وبلعني وحجرتي السكون . . واحسست بأقدام تعبر الممر في صبر

وتظل تقترب ، وأرفع رأسي عن المخدة ، وأحس بقلبي يقف عند حلقي . .

وصوت الاقدام يقترب وصرير اسنانه يحركها البرد ،ويداه في جيوبه . . ويظل يقترب والهواء يلامس ملابسه فاسمع لها خشخشة الكفن . . ورجلاه تقفان عند باب حجرتي . . واهم أن اقوم لافتح له الباب .

ـ خطاب . .

ويبلغ صرختي السكون ، ويحيط بالممر الطويل الظلام ، وانقل عيني اليه فاجده يبتسم وجبهته العريضة تلمع تحت ضوء حجرة العمليات الكبيرة ، والبالطو الابيض يلفه ، والمشرط في يده ، ويداه عليهما بقع حمراء من الدم . . وأكثر من ممرضة ومساعد تحت امره ، وانسان جريح في قلبه رصاصة منقول اليه من التقاء شوارعنا المتربة بالطريق المرصوف . . وابتسامته . . ابتسامته الصغيرة تخترق اطار الصورة وتدور في الحجرة . . وتعبر الممر الطويل المظلم لتفتح فيه خيطا نحيفا أبيض ناصعا من النور . .

الفهرس

ثمن بيع النسخة للمؤسسات

الرسمية 600 درهم

●عندما تولد الشمس في مدينتي . يزهر الفجر مع ميلاد كل صباح باصرار الانسان للحياة ومعانقته العمل والتفتح .

●وعندما تبسط الشمس اشعتها حارة حية متوهجة تغمر بها شوارع المدينة يعيش كامل المقهور كل قطرة من قطرات حياة الناس انساناً بسيطاً مثلهم . ويحملهم ملء قلبه قوى تتوهج بالارادة وتتألق بالحيوية للعمل والتحفز والانفعال .

●وفي هذا العطاء الجديد الذي تزخر به المجموعة نحس بخصوبة الانسان ومقدرته على النماء والبذل . ذلك لان كامل يؤمن بان الانسان قاهر الموت وصانع المعجزات لايمكن ان يكبو ولا يمكن ان يستسلم ما دامت الشمس تولد في اعماقه طرية ومنعشة وما دام يعيش ليعانق الفجر عند ميلاد كل صباح جديد .

علي الرقيعي



الثمن

300 درهم داخل الجماهيرية

600 درهم خارج الجماهيرية